Columbia University
in the City of New York

THE LIBRARIES

39141

PT20-10% Renaissance
13/3/45
© 93

فى الأدب المصرى

تأليف

أمين الخولى

الطبعة الأولى — ١٩٤٣

مطبعة الاعتماد بشارع حسن الأكبر لصاحبها محمود الخضرى

893.7195
K529

45-39141

COLUMBIA
UNIVERSITY
LIBRARY

مقدمة

قبل شيخى الأستاذ أمين الخولى بعد إلحاح أن أنشر أماليه « فى الأدب المصرى » ثم بسط رأيه فيمن يكتب مقدمة هذه الأمالى فى رسالة إلىَّ ، هذا نصها :

صديقى عبد الحميد . . .

بعد التحية . . ثم بعد الذى بسطت ، من اعتبار مادى يأبه له الناشر ويقدره ، لا أزال — على رغم ذلك كله — عند رأيى الذى أبديت لك ، بشأن مقدمة ، إلى الأدب المصرى . . . لا يكتبها إلا شاب ، مؤمن بهذه الدعوة ، مرجى لتحقيقها . .

لقد صارت المقدمات — يا صديقى — صورة من التقريظ القديم ، أو الاعلان الحديث يلتمس منه الرواج ، فى صورة من صوره : مالا يكتسب ، أو شهرة تذيع . . . وما أهون . . . أما المال فليس العلم سبيلا ميسراً إليه . وأما الأخرى فقد استروحت إلى النجاة من هواها .

أى صديق . . .

إذا ما كانت المقدمة تحليلا لكتاب ، وعرضاً لفكرة ؛ فمن أحق بكتابتها ممن كتب من أجله الكتاب ، وألقيت إليه الفكرة . . ! !

وإذا كانت المدرسة ، فى عبارة المحدثين ، والمذهب فى تعبير الأقدمين ، إنما هو أستاذ نهض به طلبته ، فما لنا لا نكون محدثين صادقين ، ولا قدماء محافظين إذ نطلب الحكم على فكرة الغد ، من أهل الأمس . . ! !

القول الفصل ، فى هذه المقدمة ، بل فى كل مقدمة لشىء لى ، يرى نشره ، ألا يكتبها ، إلا صاحب غد ، مؤمن بما قيل ، جد فى سبيل تحقيقه . . لتكون حديث صدق ، عن الفكرة ، فى نفس جيل ، هى رسالة إليه ، وتدبير لحياته . .

15-39181 January 20, 1947 MLF

فاكتب — إن شئت — هذه المقدمة ؛ أو يكتبها من يشاء من إخوانك الذين استمعوا إلى الحديث ، عن هذا الأدب المصرى .

ولكم مع ابتهاجى بكل ما تقولون تحية وسلام .

مصر الجديدة : غرة ربيع الأول ١٣٦٢ (١٩٤٣/٣/٧)

أمين الخولى

وليس من شك فى أن أقوى مظهر من مظاهر التعاون هو ما يقوم بين أجيال المشتغلين بصناعة الفكر ، وقد جرت عادة المحدثين أنه إذا تهيأت أسباب الظهور لأحد أبناء الجيل الجديد طلب إلى شيخ من شيوخ الصناعة أن يقدمه إلى الناس ، بالاعلان عن كتبه والكشف عن مواهبه .

ولكن شيخنا آثر ، وهو يؤمن بأن نهضتنا تجديد لا تبديد ، أن نعود إلى سنة السلف الصالح فيقدم أبناء الجيل الجديد ما تلقوه عن شيوخهم من الرسائل والأمالى والدروس .

وهأنذا أقدم إلى قراء العربية بعض أمالى شيخنا الجليل أمين الخولى « فى الأدب المصرى » .

ولست فى حاجة إلى التعريف بشيخنا فقد كان مقولا من مقاول النهضة ، ورائداً من الرواد فى الأدب ، ورسولا أمينا من رسل مصر . وهو إلى جانب هذا كله أصولى ثبت ، ومناظر قوى الشكيمة ، ومعلم يضبط المناهج ويقوم الأذواق . . .

وهذه الأمالى قسمان :

الأول فى إقليمية الأدب وتطبيقها على الأدب العربى الاسلامى مع الدعوة إلى تحرير الدراسة الأدبية من رق التقسيم الزمانى الذى نقله بعض رواد النهضة عن الغربيين .

والثانى فى منهج دراسة الأدب المصرى من جمع النصوص وضبطها وتصنيفها ونقدها إلى دراسة البيئة المصرية المادية والمعنوية .

ويجب أن ننبه هنا إلى أن مصرية الأدب لا اتصال بينها وبين مايزعمه الزاعمون من فرعونية مصر « فنحن إنما ندرس هذه المصرية الأدبية فى صورتها العربية ، ودورها الاسلامى ، أيام إذ عرفت ذلك كله ، وانحازت اليه ، وشاركت فيه ، وعملت من أجله [١] » . . والوحدة العربية « لن يضيرها أن يشعر كل جزء من أجزائها ، وكل جانب من جوانبها ، بوجوده ، وذاته ، وشخصيته ، فيكون بذلك جزءاً وعنصراً نافعاً مجدياً على الوحدة التى يدخلها ، والاتحاد الذى يشاطر فى تأليفه وتقويته . . . ونحن فى كل حال نقدر فى يقظة واهتمام ، أن هذه العصور التى ندرسها عربية السنخ ، عربية الجذر ، إسلامية العرق ، ماننكر شيئاً من ذلك ولا نشاح فيه أحداً ، فمصر المدروسة لنا فى هذا الأدب المصرى ، إنما هى مصر الاسلامية العربية ؛ فى العصر الذى امتدت فيه للاسلام دولة ، وقام العرب بنصيب من دفع الانسانية إلى الحياة ، وتوجيهها للنهوض . وكذلك تؤرخ البلاد الأخرى ، هذا التاريخ الأدبى الاقليمى لهذا الدور ؛ تفعل ذلك الشام العربية الاسلامية ، والعراق الذى هو كذلك ، والمغرب الذى له هذا اللون ؛ ومن هنا

---

(١) ص ٣٥

تكون العربية الأولى منبعاً وأصلا لهذه الآداب الاقليمية ، فى كل صورة من صورها ، وتكون اللغة العربية الأولى ، والأدب العربى الأول فى الجزيرة ، هى الأصل الجامع الذى انشعبت عنه هذه الآداب فهو يقوم منها مقام النواة والجرثومة (١) » .

وإذا كانت مصر قد بدأت تفيق وتحس نفسها الجامعة والمتكثرة فإن عليها أن تشرع فى جمع تراثها الأدبى وغربلته والمحافظة عليه ثم العمل على إحلال الممتاز منه محل هذه القوالب الواردة عبر البحر أو عبر الصحراء . . وحرام أن يتخصص فى هذا الأدب قوم من غير مصر فتمنحهم هيئاتهم العلمية أرقى إجازاتها ، ونعكف نحن على دراسة الأدب اليونانى واللاتينى والفارسى والتركى والانجليزى والفرنسى و . . . و . . . مع أن هذا الأدب المصرى حقيق بوقفة الباحث المصرى ونظرة المؤرخ المصرى وحكم الناقد المصرى .

عبد الحميد يونس

عضو لجنة ترجمة دائرة المعارف الاسلامية

---

(١) ص ٣٥ — ٣٦

إهداء . . .

إلى الشاعرين بأنفسهم . . . .

الادب المصرى

— ١ —

الايمان بالشخصية المصرية عقيدة ، يخفق بها قلب المصرى ، كلما تواثبت مياه النهر المقدس ، منسابة من مجراه الأزلى ...

وهو روح الحياة ، يتنفسه المصرى كلما هبت نسمات الوادى ، مطيفة بمعالم المجد الأبدى فى جنباته ، حاملة من أعطاف تلك الشخصية المصرية عبير الخلود ، الذى أخضع الدهر وقهر الزمن .

وإيمان الحى بنفسه هو فيه رغبة الحياة التى تمسك عليه كيانه ، وتحفظ وجوده ، والحى بغير هذا الايمان لقى مضيع ، وجماد ممتهن ، وحى ميت .

ولو كان درس الأدب المصرى عملا ينبعث عن هذه العقيدة ، وحاجة تدفع إليها الحياة الشاعرة بنفسها ، لكان هذا الأدب المصرى وحده ، هو مادة الدرس الأدبى فى مصر ، المعتدة بشخصيتها ، لا تؤثر غيره عليه ، بل لا تعرف سواه معه .

ولو كان درس الأدب المصرى وفاء بحق الوطن ، وأداء لواجب كلية الآداب فى الأرض المصرية ، لكان هذا الأدب المصرى وحده هو ما تعرفه قاعات الدرس فى تلك الكلية ، لا يرتفع فيها لغيره صوت ، ولا يسمع لسواه ركز ، إلا على أنه لون من الترف الدراسى ، والتوسع

الجامعى ، بعد أداء الواجب الأول ، والوفاء بالحق الأقدس .

ولو كان درس الأدب المصرى ، يأخذ مكانه بين بواعث النهضة المصرية ومقوماتها ، لكانت العناية بهذا الأدب المصرى أولى خطوات النهضة ، كما جرت بذلك سنة الحياة ، إذ تسبق نهضات الفنون سائر النهضات فى الأمم ، ثم تليها غيرها من النهضات بعد أن يكون الفن قد مهد له ... وبهذا شهد التاريخ انبعاث الأمم فى الشرق والغرب جميعاً

ولو كان الأدب المصرى يأخذ مكانه بين مواد الدرس التى تلزم المناهج الصحيحة العناية بها والعكوف عليها ، لكان درس هذا الأدب المصرى ، هو مايستطيعه المصرى قبل غيره ، ودون غيره . إذ يتولى ذلك الدرس فى بيئته التى هو صاحبها وربيبها ، وأقدر الناس على فهمها . وذو العيان الشاهد فيها ، والاختبار الممارس لها . فلو لم تكن الجامعة مصرية إلا بقدر ما هى فى أرض مصر ، لكان من الأجدى على دراستها أن تعكف على أقرب ما حولها من المصادر ، وتعنى من ذلك بما تلمس مثله الحاضر وماضيه الجاثم .

ولو كان درس الأدب المصرى لوناً من التجدد المساير للحياة ، لكان هذا الأدب المصرى هو مظهر تجدد المشاركين فى الحياة ، وأقرب سبيل إلى الاتصال بها ، لأن الحياة الوجدانية فى الأمم هى أقوى ما يحس به أفراد الأمة جميعا ، أو أكثر ما يكون اشتراكهم فيه جميعا . فالفلسفة مثلا تنفرد بها خاصة قليـــلة ، والعلم تعنى به قلة متميزة . وكذلك صنوف النشاط المختلفة ، تختص بكل واحد منها بيئة بعينها ، على حين يشترك أولئك جميعا فى حياة وجدانية شاملة ، يلتقى فى

الانفعال بها الصغار والكبار ، والخاصة والعامة ، وأصحاب النظر والعمل .

وهكذا كلما قلبت الرأى ، وجدت جميع الاعتبارات النفسية ، والوطنية ، والفنية ، تقضى بتوافر العناية بهذا الأدب ، بل تؤذن بإفراده وقصر الهمة عليه ، دون غيره ، إلا ما يكون من ذلك وسيلة إلى فهم هذا الأدب وتمثله ، أو ما يكون توسعا فى الدرس ، ورفاهية فيه ، بعد ما لا بد للدارس منه .

— ٢ —

أن وراء تلك الاعتبارات التى أشرنا أليها آنفا حقائق يقضى بها المنهج المحرر ، المسلك الصحيح فى بحث الأدب ؛ وهى حقائق تقضى — فى إصرار وتأكيد — بأن تخصيص هذا الأدب بالدرس هو الأسلوب الصحيح ، والخطة التى يجب أن تلتزم دون غيرها . وقد عرضت لهذه الملاحظة المنهجية منذ سنوات[١] فكان مما قلت فيها عن :

إقليميـــــة الأدب

« .. منذ اقتبس المتصلون بالغرب هذا النمط من الدراسة التاريخية »
« الأدبية ، ووجدوا الغربيين يقسمونه إلى عصور لها وحدة اجتماعية »
« واضحة ، قسموا تاريخ الأدب العربى الاسلامى إلى عصور زمنية »
«مجاراة لمن أخذوا عنهم ... واستقرت قواعد هذا التقسيم يقفى فيها»
«الخلف على آثار السلف ، فى أكثر من طبقة ، ولم ينلها تغيير إلا ما كان»
«أخيراً من إنكار دوران تاريخ الأدب ، رفعة وانحطاطا ، مع العظمة»
«السياسية والضعف الحكومى ؛ فعدل تقسيم العصر للعباسى تلافيا»
«لذلك ، وظل هذا التقسيم الزمنى ، يجعل دمشق ثم بغداد مركز تاريخ»
«الأدب ، ويدير عصوره حول رفعة هاتين العاصمتين وسقوطهما ، »
«وكأن هناك وحدة تامة شاملة ، للأمة الاسلامية أو العربية ، تتعرض»

---

(١) الخولى : مصر فى تاريخ البلاغة ص ٣ وما بعدها — بحث نشر فى مجلة كلية الآداب — المجلد الثانى ، العدد الأول سنة ١٩٣٤ .

«بها لظروف واحدة ، ومؤثرات متحدة ، تتغير بها تغيراً متسقا»
«مطرداً ، مظهره الوحيد هو النفوذ السياسى والسلطان الحكومى الذى»
«يمثل وحدة التدرج الاجتماعى فحسب . . . »

«وهذا صنيع نستطيع أن نسميه خطأ ، ونطلب ، بل نسعى إلى»
«إصلاحه ، وذلك أنه : إن كانت الأمة الاسلامية المنبثقة من بحر الظلمات»
«— الاطلنطى — غرباً إلى سور الصين شرقا ، ومن مجاهل آسيا»
«وأوربا شمالا إلى مايسامت جنوب إفريقيا ، قد اكتملت لها وحدة»
«سليمة ذات مزاج أدبى واضح ، وكونت جسما قامت منه العاصمة فى»
«الشام طوراً وفى العراق تارة ، مقام القلب من الجسم ، وكانت مجمع»
«النشاط ومحور الحياة ... إن كان ذلك فان لسائر أجزاء هذا الجسم»
«عملها فى هاتيك الحياة ، ومشاركتها فى ذلك النشاط ، ولكل إقليم»
«منها طابعه الخاص فيما يحمل عنه إلى دار الخلافة ، وينتقل ولا بد إلى»
«قاعدة الدولة ، وإذ ذاك لا يهون فهم حياة هذا القلب دون فهم أجهزة»
«الجسم المختلفة ، ولا يتيسر إدراك حقيقة هذا المزيج إلا بعد إدراك»
«بسائطه عنصراً عنصراً» .

«وإن كانت الأخرى ، ولم نفرض تماسك هذه المملكة الاسلامية»
«المترامية الأطراف تماسك الجسد الواحد ، بل قدرنا فى دقة ، أن هذه»
«الأمة الاسلامية فى — حقيقة الأمر — ليست إلا خليطا غير تام»
«التجانس ، خليطا لم يصبر طويلا على التوحد المركزى حتى فى السياسة ، »
«بل بدأت تتشعب منه الدويلات المستقلة منذ عهد مبكر . وفى»
«عنفوان قوة الدولة المركزية . وكانت مصر ، مثلا ، من أسبق هذه»

«الدولات ظهوراً ، إذ تحيزت وحدها لعهد الطولونية فى القرن الثالث»
«الهجرى ... فان قدرنا أن هذا هو الذى كان إذ ذاك ، فليست للأمة»
«الاسلامية فى كل حال تلك الوحدة المدعاة ، فى تاريخ الأدب العربى ، »
«وليس من اليسير تقسيم هذا التاريخ عصوراً زمنية لا غير» .

«ولئن كانت المدرسة الأدبية ، قد حملت أخيراً على الفكرة السياسية»
«ورأت من الخطأ أن يقصر تدرج الأدب على تقلبات السياسة وحدها ،»
«فلقد كان يجب أن تنظر إلى أبعد من ذلك المرمى ، وأوسع من ذياك»
«الأفق ، فتتحرر من الخطأ المكانى فى تاريخ الأدب كما تحررت من شىء»
«من الخطأ الزمانى ، بل لعل التحرر من الخطأ المكانى كان أولى وأهم»
«— فيما أرى — لأن هذه الوحدة التى يدعونها للناطقين بالعربية ،»
«وهذا الامتزاج التام بين أقطار مترامية البعد ، من الشرق النائى إلى»
«الغرب الأقصى ؛ وبين أمزجة متباينة الخصائص ، من آرية وسامية»
«وغيرها ؛ وبين ألوان مختلفة من بيضاء وصفراء وسمراء ؛ وبين حضارات»
« متفاوتة من قديمة أزلية ، قد ذهب عرقها فى أغوار الدهر ، إلى حديثة »
« غضة ، إلى ما بين هذين من درجات متغايرة . هذا الامتزاج الغريب »
« لا يسهل قبول ادعائه ، وهذا التوحيد الشاق على الدهر نفسه ، لم يكن »
« ليتم بمجرد أن يحكم كل أولئك بدولة واحدة ، أو ببسط سيطرة »
« سياسية ، أو نفوذ حكومى واحد . »

« والعجب أن دارسى الحياة الاسلامية الفكرية ، يرون اختلاف »
« الأقاليم فى المقالات الاعتقادية والآراء الدينية . ويشهدون توزع »
« المذاهب الفقهية العملية المختلفة ، على تلك الأقطار ، إلى غير ذلك من»

« مظاهر التخالف ، التى يقررونها فى صور متغايرة وألوان شتى ، ثم »
« لا يلتمسون مثل ذلك فى الفنون الأدبية وتاريخها ، مع أنها أشد »
« خضوعا لعوامل المغايرة ، وأسباب المخالفة من تلك الآراء الاعتقادية ، »
« وهاتيك المذاهب العملية . . . »

« وعمل هؤلاء الدارسين لتاريخ الأدب ، على نظام العصور الزمنية ، »
« متناقض متدافع ، فهم حين يزعمون أنهم يدرسون تاريخ الأدب فى »
« عصر من العصور ، إنما يقصرون جهدهم العملى على بيئة واحدة من »
« تلك البيئات المتعددة التى غشيتها اللغة العربية ، ونشأ فيها أدب عربى ، »
« فيعنون بالعراق وما حوله من الشرق القريب مثلا ، حتى ليجدوا فى »
« أنفسهم الحاجة الشديدة إلى أن يفردوا بالبحث أقاليم أخرى ، يدركون »
« بعدها واضحا كالأندلس مثلا . وما المغرب ، أو أقصى المشرق ، »
« بأقل حاجة إلى الإفراد بالبحث من الأندلس ، بل إن مصر تحتاج »
« إلى مثل ذلك الدرس المفرد تماماً إذا ما أنصفنا . »

« وأخيراً — بل أولا كذلك — نحن نرى العلم يقرر أثر البيئة فعالا »
« عنيفاً يتنازع الوراثة أثرها ، فكيف يريد علماء تاريخ الأدب أن ينسوا »
« أو يهملوا تأثير البيئة ؟ وكيف يريدون أن يجعلوا هذه الدنيا العريضة »
« التى حكمها الاسلام ، وسكنتها العربية ، بيئة واحدة ؟ !! ذلك ما لا »
« قوة لمنصف عليه » .

« فالرأى الصائب أن يعدل مؤرخو الأدب ، عن توزيع دراسة الأدب »
« العربى الاسلامى على عصور زمنية ، وأن يقدروا الأثر القوى لكل »
« بيئة نما فيها أدب عربى ، وأن يتتبعوا هذا الأثر بالدرس المستقل ، وأن »

«يدرسوا العربية فى المواطن المختلفة التى نزلتها ، موطنا موطنا ، فيكون»
«أساس التقسيم هو اختلاف البيئة وتغايرها ، ووحدة المؤثرات المادية»
«والمعنوية فيها — وإن لم يسر ذلك مع التقسيم السياسى أو المتعارف»
«عليه للأقطار والبلدان — بل تفرد كل بيئة متجانسة بدرس خاص ، »
« لا كل قطعة من الزمن ببحث » .

«ولقد تكون حول نظرية «البيئة فى تاريخ الأدب العربى» وفكرة»
«التقسيم المكانى له ، مناقشات أو اختلافات ، أرجع إلى استيفائها فى»
«غير هذا المقام(١) ، مكتفيا هنا بما تجلى من خطأ الفكرة الزمانية جملة»
«وتفصيلا ، وقوة فكرة اختصاص البيئات بالدراسة ، وأنها هى التى»
«تجرى على قواعد المنهج العلمى الصحيح ، ولا تقف عند ظواهر ساذجة»
«من التشابه ، والمشاركة السطحية فى فنون الأدب العربى وحياته ، وبهذا»
«تخص الأندلس والمغرب ومصر والشرق الاسلامى الأقصى ، والشرق»
« الأقرب : كل بدراسة خاصة مفردة . على أساس ما يستبين من »
« تمايز البيئات . »

ومن هنا تكون الدراسة الأدبية لمصر وحدها ، هى الخطة العملية »
« المثلى ، كما كانت وفاء بواجب اجتماعى حيوى ، إلى جانب أنها مصلحية »
« عملية ، قائمة على المشاهدة الجلية ، والاختبار القريب »

* * *

«إقليمية الأدب» هى قضية العلم فى تاريخ الأدب : قضية العلم التجريبى التى يقررها واثقا ، حينما يتحدث عن علاقة الكائن ببيئته . وأثر تلك البيئة

(١) وهى ما سيعرض له هذا البحث عن فكرة الأدب المصرى ، ومنهج درسه

بنوعيها ، من طبيعية واجتماعية ، فى الحى الذى يعيش فيها ويختص بها يقررها هذا العلم التجريبى واثقا ، حينما يرصد الفوارق الفاصلة ، بين البيئات ، ويدرك أن مصر قد تميزت من ذلك بمميزات واضحة الفصل ، قوية التأثير فى التحديد والتمييز ، من بحار وصحارى ، وبمقومات خاصة جعلت هذه البلاد وحدة مادية بارزة المعـــالم ، جلية الخصائص ماثلة الفوارق .

إقليمية الأدب هى قضية العلم ، التى لا يتسع فيها المجال لترديدات احتمالية واعتبارات كلامية ، تساق لإرضاء هوى من الأهواء أو تأييد ميل من الميول ، اعتماداً على فلج الحجج ، واللحن بها ، كما يجرى ذلك فى الميادين الكلامية والأبحاث اللفظية . وقضية العلم تلك إذا ما ارتفعت على تأثير البحث النظرى ، فأولى بها أن ترتفع ، بل وتتمنع ، على نواحى التأثير الفنى من الاستهواء والخلابة ، واللباقة الخطابية ، والمبالغات الصناعية ، فلا ينال كل أولئك منها شيئا ، أو تثبت غيرها شيئا .

إقليمية الأدب قضية يصدق القول بها على الجزيرة العربية نفسها كما يصدق على الامبراطورية العربية ، أو الاسلامية — أو ما شئت أن تنعتها ؛ فأما صدق هذه القضية العلمية على تلك الامبراطورية فقد مضى ما يكفى فيه . وأما صدق هذه الفكرة فى الجزيرة نفسها ، وتقرير أن هذه الجزيرة — أو شبه الجزيرة — العربية لم تؤلف فى حياتها وحدة جامعة شملت البحرين ، واليمن ، والحجاز ، والعراق ، فى الحياة اللغوية والأدبية ، كما قد يشيع تقرير ذلك فى تاريخ العربية وأدبها . . . لم تؤلف الجزيرة هذه الوحدة لأن بيئتها قد حالت بالغمر

الصحراوى الجدب الذى يتوسطها ، دون أن تؤلف هذه المناطق وحدة متجانسة أو أجزاء مترابطة ، وسيأتى لذلك فضل بيان شاف عند الموازنة بين البيئتين المصرية والعربية . وإنما تعجلنا ذلك هنا ليقدر منكرو الاقليمية ، أنها محتكمة فى أقرب ما عرفوا من وحدة ، وما نسوا من واقع .

إقليمية الأدب تصحيح مادى لخطأ شائع لن ينصره شيوعه ، كما لن يعوق هذا التصحيح أنه جديد أو غير مألوف ، أو لم يشعر به القدماء ، أو لم يتقبله المحدثون بعد ؛ فما كانت البيئة الجامعية لتؤمن بذلك الشعار السخيف : فى إيثار الخطأ المشهور على الصواب المهجور ... على أن العهد بتاريخ الأدب وتقسيمه لم يبعد ولم يطل ، حتى تكون له أصول راسخة يستعصى تعديلها أو يشق تغييرها . فتلك حركة حديثة عهد بوجود . وهى أحدث عهداً بالتنسيق العلمى والتقسيم الصحيح . فلا عليها أن أصاخت للنقد ، واستفادت من التصحيح ما استطاعت .

وإنى من جانبى لشديد الاصاخة إلى هذا النقد ، والالتماس لذياك التصحيح ، وفى سبيل ذلك سأقف عند مكتوبات ومقولات ، لعلها هينة ، يسيرة الخطر ؛ ولكنها الحقيقة المحببة لذاتها ، والتحرى الواجب أمانة للدرس آخذ نفسى به والتزمه ليكون القول بالاقليمية نزيها صحيحا ، ما استطعت الى ذلك سبيلا .

حول الاقليمية

« إن رأى الأنسان فى أى موضوع — غير الرياضيات »
« والطبيعيات — لايستحق اسم المعرفة ، مالم يكن صاحبه »
« قد سلك فى تكوينه طوعا أو كرها ، تلك الطريقة »
« التى ينبغى عليه اتباعها فى مجادلة خصم عنيد ، ومناظرة »
« قرن شديد »

« ستيورات ميل »

إذا ماكانت اقليمية الأدب ، هى قضية العلم فى تاريخ الأدب وحياته — وإنها لكذلك لاغير — فلا موضع بعدها للعب بالألفاظ وإثارة جدل نظرى الأدلة والمقدمات ؛ ولكنها الرغبة الصادقة فى أن يطمئن الدارس للفكرة ، اطمئنانا لاينفره عنه تشكيك لفظى ، ولاترديد كلامى ؛ ومن أجل ذلك أوثر أن أعرض لما شاع حول هذه الاقليمية من ريب أو ظنون ، سمعت بعضها من أفواه قائليه ، وقرأت بعضها فى كتابتهم . ولئن آثرت النظر فى المكتوب من ذلك أولا ، فليس لفضل قوة فيه ، من أجلها أقدمه ؛ وإنما أقدمه لأنه أكثر تحدداً بعبارة صاحبه ضبطا فى نصه :

— ١ —

والذى قرأت من ذلك مكتوباً هو فصل لأحد أبنائنا الجامعيين من رسالة فى العالمية ، كل قيمته أنه مما جرى به قلم شاب ، والشباب أقبل للجديد ، وأكثر إقداماً على التصحيح ، على حين هم أقوى شعوراً بالشخصية والقومية ، لما تنبه اليه عصرهم منها وما جاهد به فى سبيلها .

فما ورد فى أنكار الاقليمية قوله :

« ... فنحن نجد المؤرخين للأدب العربى يذهبون إلى أنه وجدت داب قومية فى المملكة الاسلامية مع ابتداء القرن الرابع الهجرى كما يقول : «.. ونحن نعود فنحترس ثانية من فكرة الاقليمية فى الأدب العربى ؛ ومايذهب إليه الباحثون من أنها نشأت مع القرن الرابع » .

ومع أن فكرة الاقليمية فى أصلها لن تحتمل التعرض لتقرير مثل هذا القول الجامع عن المملكة الاسلامية ، ولن تطمئن إلى شىء من هذا التحديد بقرن خاص تعده بدءا موحداً ، لظواهر متفاوتة مختلفة ، لا تعترف لها بوحدة ، فإ نا مع ذلك كله لا نعرف من مؤرخى الأدب العربى من ذهب هذا المذهب فى تحديد الزمن ، إلا أن يكون ذلك لمحاً سريعاً . غير منضبط من صنيع « الثعالبى » حين ألف كتابه « يتيمة الدهر » عن شعراء الأقاليم ، كما تشير إلى ذلك عبارة هذا القائل حين يقول : « ولعل صاحب اليتيمة هو أول من أعد لهذه الفكرة ، إذ قسم كتابه إلى أقسام أربعة بحسب الدول والأقاليم » . وفى كل حال ، إذا كان من مورخى الأدب العربى ، أو من الباحثين من ذهب إلى هذا التحديد ، فان هذا التحديد الجامع الموحد ، لنشأة الآداب الاقليمية ، خطأ يناقض الأساس العقلى ، الذى قامت عليه فكرة إقليمية الأدب ، وهذا الأساس هو : **أن لكل بيئة منفردة مزاياها وخصائصها التى تنفرد بها بين الأقاليم ، وتلك المزايا والخصائص هى التى توجه الحياة الأدبية فيها وتؤثر فى سيرها ؛ و باختلاف هذه المميزات المادية**

والمعنوية تختلف حياة الاقليم الأدبية ، ويختلف نظام سيرها ، من نشأة وتدرج وتفرع ، وعلى هذا فلا محل لحذر الطالب وتحذيره حين يقول « ينبغي دائما أن نحذر تحديد نشوئها — الآداب الاقليمية — لأنه أحدا لم يعن بهذا البحث » .

• • •

وفي بيان مخالفته لفكرة الاقليمية ، يقول موضحاً وجه احتراسه من الفكرة ما عبارته : « ... فقد كان العالم الاسلامي حتى هذا القرن — الرابع — لايزال متشابكا بالرغم من ظهور الأوطان السياسية . ولم تظهر بعد الصفات التي تميز وطناً عن وطن في العلم أو في الشعر ، وقد اعتبر المقدسي مملكة الاسلام تمتد من كاشغر في أقصى المشرق ، إلى السوس الأقصى في المغرب . وقد حددها ابن حوقل في الشرق بأرض الهند وبحر فارس . وفي الغرب بمملكة السودان الذين يسكنون على المحيط الأطلسي ، وفي الشمال ببلاد الروم وما يتصل بها من الأرمن واللان ، والران والخزر والبلغار والصقالبة والترك والصين . وفي الجنوب ببحر فارس . ويلاحظ الأستاذ « آدم ميتز » أن المسلم كان يستطيع أن يسافر في هذه المملكة فلا يشعر بوحشة ، إذ يجد شريعة واحدة وعرفاً وعادات واحدة . ويلاحظ أيضاً أن ناصر خسرو ، طوف في هذه المملكة أثناء القرن الخامس الهجري دون أن يلاقي من المضايقات ما كان يلاقيه الألماني الذي كان يسافر في ألمانيا أثناء القرن الثامن عشر الميلادي » .

• • •

وإذا ما طرحنا نحن هذه الإطالة الجغرافية، فى بيان حدود تلك المملكة الفسيحة ، بقى اتساع رقعتها شاهداً على عدم الوحدة لا على الوحدة ، لأنه اتساع شمل ألوانا من البشر وأجناسا ، ولغات ، وثقافات متفاوته ، مختلفة متغايرة ، شديدة التفاوت ، عظيمة الاختلاف ، عنيفة التغاير . . . ولا نبين هذا التفاوت والاختلاف والتغاير فهو أبين من ذلك وأوضح ؛ ولكن ننظر فى مظاهر الوحدة التى يحتج بها القائل : فأول ذلك قوله :

« لم تظهر بعد الصفات التى تميز وطنا عن وطن ، فى العلم أو الشعر . » ... والجمع بين العلم والشعر فى هذا خطأ بين ، لأن العلم بطبعه لا وطن له ، وستتطاول القرون دون أن تظهر الصفات المميزة للوطن العلمى ، لأن العلم ليس إلا حقائق ذاتية لا تتغير بالزمان ولا بالمكان ، ولا بالمتناول ، ولا بالمتذوق . ولا بالعارض ، ولا بالدارس ، ولا بغير ذلك عن مؤثرات تغير الأدب وتلونه ، وتخالف بينه ، وتعدد صنوفه وفنونه ، ولعل هذا الجمع بين العلم والشعر رأس الخطأ فى تفكير من ينظرون فى تاريخ الأدب ، فيجرون الفن على منوال العلم وأساليبه .

ومظهر هذه الوحدة عند مدعيها هو : « استطاعة المسلم السفر فى هذه المملكة ... » الخ ، ما ينقل عن آدم متز ... فهل صحيح أن هذا المسافر كان يجد شريعة واحدة ؟ هل صحيح أنه لا يجد الفقه الشيعى فى فارس ، والتشريع الخارجى حينا فى جنوب بلاد العرب ، والأصول

الباطنيه — أيام القرن الرابع — فى فاطمية مصر ، ويجد المذهب الحنفى فى البيئات التركية ، غير المذهب المالكى فى المناطق المغربية ، وبين هذه الألوان من الفقه الاسلامى ، بل بين هاتيك المذاهب المختلفة من الفقه السنى نفسه ، مالا يعد معه القول بشريعة واحدة إلا قولا خطابيا استهوائيا لاحظ له من الدقة .

• • •

ولا يقف الأمر عند الشريعة وهى ظاهرة عملية فى الحياة الاسلامية ، بل يمتد إلى العقيدة نفسها ، وهى مظهر نفسى داخلى يكاد يختلف به الاسلام عن غيره من الأديان ، حين يضيق شقة الخلاف فيه بين المسلمين ، ولكن الباحث المؤمن بالأساليب العلمية الصحيحة فى فهم الحياة ، لا يرى أن هذه الفروق فى العقيدة الاسلامية نفسها ، يسيرة الشأن ، فلقد كانت العقيدة اسلامية فى نفوس الأتراك ، وماوالوا من الشعوب الصفراء ، موئلا لألوان من التفسير والتكييف والاقتباس ، والتقبل لأنواع من الأوهام والآراء تمتاز بها هذه المناطق .. كما كانت تلك العقيدة ذاتها فى أنفس الفرس الآريين ، أصحاب المثنوية المعروفة والوثنية الخاصة ، تتجه نواحى من الاتجاه ، تخالف هذا الذى فى نفوس الأتراك وما تكيف به اعتقادها وتفسره .. ، كما تختلف عن مثلها فى نفوس العرب البداة أو البربر البداة مثلا .

وليس يعنينا هنا أن تكون شقة الخلاف التصورى والتفسيرى للعقيدة الاسلامية واسعة أو ضيقة فنثبت ذلك أو نبينه ، لأنا إنما نهيء بالاشارة اليه ، لرد القول بأن الشريعة الاسلامية كانت واحدة فى

هذه المملكة الفسيحة الرقعة المنبسطة الأرجاء ، فنقول : إن هذه الوحدة لم تتحقق حتى فى العقيدة نفسها ، لا فى الشريعة فحسب ، وإلا ففيم هذه الملل والنحل المختلفة الكثيرة التى وصلت فى عد الحديث ذاته إلى كذا وسبعين فرقة ، وهى فى عد العلم والتحقيق هكذا أو أكثر .

وهل صحيح أن المسافر كان يجد عادات واحدة وعرفا واحداً ؟ وان آية ذلك وحجته أن ناصر خسرو طوف فى هذه المملكة أثناء القرن الخامس الهجرى دون أن يلاقى من المضايقات الخ ..؟!! كانت العادات واحدة والعرف واحداً فى مراكش وخراسان ، وقد اختلف الجنس وتغاير الدم ، وتنوعت الحياة ، وتفاوت الحظ من الحضارة وميراثها .. ومن ذلك كله تكون العرف ورسخت عروق العوائد ، فى أرض من الماضى المختلف بل المتباين وهذا الحاضر المتفاوت المتخالف ، فبكت الشيعة يوم عاشوراء حين ابتهج غيرهم يوسعون فيه على عيالهم .. وشرب التتر فى آسيا ألبان الخيول ، حين عافها غيرهم فى أفريقية وسواها . وجال علماء الأندلس عراة الرءوس ، وشهدوا مجالس القضاء بغير عمائم ، حين أرخيت العذبات وكورت العمائم فى المشرق ، وعدت تعرية الرأس ضربا من الاخلال بالأدب .. وبيضت المغاربة بالأندلس حزنا ، وسودت المشارقة حداداً . فكادت العادات أحيانا تمثل فى خلافها ، أو تمثلها فى هذا الخلاف ، قصة الحجازى الذى قال له القيل الحميرى : ثب ، فرمى بنفسه من أعلى الدار ، والقيل إنما يريد منه — فيما حكوا — أن يجلس ... تلك هى العادات والعرف .

والمقدسى الذى وردت الإشارة إليه فى عبارة الكاتب السابقة ، قد بسط فى كتابه « أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم » ألوانا مما تفاوتت فيه هذه الأقاليم فى حياتها ، فذكر نقوداً مختلفة ، وموازين ومكاييل متغايرة ، كما أشار إلى طرائق تعليم ، وعلوم ، وآداب ، وثقافات متعددة ، وذكر أحياناً أزياء لا تتشابه فى تلك الأقاليم ، وألم بمختلف العادات فى تناول الحياة ، وعرض لاختلاف أخلاق الناس فى تلك الأنحاء . . . وللقدماء أنفسهم فى اختلاف الأخلاق باختلاف البلاد فكرة واسعة متأصلة ، نلمسها دائما فى كتاباتهم عن البلدان ، فنجدها عند « ياقوت » فى معجمه كما نجدها عند « المقدسى » وعند غير هذين أيضا حتى صار من كلماتهم المشهورة « للبقاع تأثير فى الطباع » (١) .

وقضية تكون العادات والأعراف نفسها واستقرارها ، فى بحث النفس البشرية ، تشهد باختلافها الشديد وتفاوتها العنيف ، بل قضية الفقهاء المسلمين أنفسهم تقضى بهذا الاختلاف ، إذ يعللون به اختلاف رجال المذهب الفقهى الواحد فى الآراء بعد ما يتأصل بينهم من وحدة الأصول ، واستقرار وجهات النظر الأساسية .

وهكذا جعل هؤلاء الفقهاء العرف من مناشئ اختلاف الحكم الشرعى وعدوا هذا أصلا مقرراً . وإذا ذكر العرف والفقه ، تذكرنا أن

---

(١) بهاء الدين السبكى : عروس الأفراح ١ : ٤٦١ على هامش شروح التلخيص .

الشافعى ، فى نحو خمس سنوات وشهور — بين شوال ١٩٨ هـ ، ورجب ٢٠٤ هـ — أقامها بمصر ، قد خلف مذهبه الفقهى الجديد ، بعد مذهبه القديم فى المشرق — العراق والحجاز — فما بال هؤلاء الباحثين ينسون مثل تلك الحادثة المشتهرة حين يتحدثون فى الأدب والفن ، ومثل أولئك أخلق بالاختلاف والتفاوت — بل التباين — من التشريع العملى والفقه التنظيمى الذى يسوس علاقة ما بين الناس فى أمور مادية منضبطة ، أصلها كلها واحد ، ومصدرها بيان واحد ، أو عمل واحد ؟ ! !

...

لعلنا حين نقدر ذلك ندرك أن طواف ناصر خسرو أو أمثاله من المطوفين ، لا يكفى لأن ينهض حجة علمية ، وسنداً لباحث يتحدث عن اختلاف البيئات وتفاوت الفنون ، وتغاير ذلك بمعالم كبرى من الجنس والدم ، والثقافة والبيئة والوراثة ، وما إلى ذلك مما يكفى أقله لأكثر من مثل هذه الدعاوى فى الاختلاف والتفاوت ! نعم لن ينكر أحد أن هذه الجماعات كانت تلوذ بأصل واحد هو القرآن ، وتجمعها معالم كبرى موحدة ، ومظاهر عامة مشتركة . مما يلتقى حول مثله الناس فى حياتهم . . لكنه لا يكفى لأن يصرف الباحث عما بينهم ، وراء ذلك ، من خفى عوامل التفريق وظاهرها . وكانت هذه الظواهر المشتركة ، والخطوط الرئيسية الكبرى الموحدة ، هى التى تقرب ما بين قلوب أصحاب الدين الواحد وتيسر للراحلين الأنس والألفة لأهل هذه البلاد ، واستطاعة التقلب بينهم ، وشاهد

هذا اليوم قائم قريب ، فقد قصدت فى رغبة قوية إلى زيارة المناطق التى فيها مسلمون بأوروبا الشرقية كرومانيا ويوجوسلافيا وغيرهما ، وكانوا يأنسون بى وكنت آنس إليهم ، ولعل ذلك كان بيننا متبادلا وقلبيا ، أكثر مما بين هؤلاء ومواطنيهم من غير المسلمين ، وإن لم يقم هذا على شىء من أصول الوحدة ، ووشائج الامتزاج التى تؤلف بيننا ، أكثر من العقيدة المشتركة ، والعاطفة الدينية المتبادلة .

على أن هذه الدولة الاسلاميه التى كان يسهل على السائح التنقل بين أطرافها المترامية ، مهما يكن فيها من أسباب التوحد فوق العاطفة الدينية ، فان تلك الأسباب مهما تتعدد ، لن تزيل منها مظاهر اختلاف ، ومعالم افتراق ، أوضح وأجلى من أن تخطئها عين باحث غير عشواء . وإذا كان السفر فى ألمانيا فى القرن الثامن عشر الميلادى لم يتهيأ للراحل ، فليس تهيؤه فى المشرق للمسلم دليل توحد ، ولا برهانا كافيا لنسيان الواجب العلمى ، وإهمال حقيقته الناطقة فى إقليمية الأدب .

— ٢ —

ومما سمعت من اعتراض المعترضين على الاقليمية فى نقاش وحديث :

أن هذه الأقاليم بعد الفتح الاسلامى وانسياح العرب فيها ، لم تعرف إلا العروبة التى أتمت تلك المعجزة الاجتماعية ، حين ذهبت فى الأرض تحمل قبس الدعوة الاسلامية : تعطى بيمينها هذا الهدى الدينى وتتم بيسارها هذا الصوغ الفنى . أليست العربية قد صارت لغة كل أولئك الأقوام ، فنسوا بها ما سجل آباؤهم فى صفحات الدهر ، مهما تكن صفحات خالدت . وانصرفوا لا يلوون حتى على الصخور الثوابت ، والأهرام الرواسخ .. قد استعربوا لغة ومزاجا ، وفنا وعقلا ، كما أسلموا ، أو حمدوا للاسلام ما هيأ لهم من ذمة وعهد لا يخيس ولا يخفر . . . ولا تحسبن هذا الذى يوصف من الخلق الاجتماعى الجديد الذى أتمه الاسلام ، بدعا من السنن الاجتماعية ، ولا خروجا على النواميس الكونية ، فان له لنظيراً أو نظائر ، فى محاولات الاسلام الأخرى . فالفتح الاسلامى قد أنجز فى سرعة لم تعهد من قبل ، ولو قيست بغيرها من صنيع الدول الفاتحة ، لأزرت به فى غير جدال . وها هو ذا ما بقى من أثر إسلامى فى تلك البيئات التى جاءها الاسلام ، تراه أثراً قد أربى فى ثباته ورسوخه وبقائه وصموده ، على كل ما عرفت تلك الأودية والأقاليم من آثار أمم أخرى عمرت الأرض أكثر مما عمرها المسلمون ، وكانت أشد قوة ، وأكثر جمعا ، ولكنها زالت وامحت آثارها ، بعد يسير من الزمن ، ولم يبق منها ما بقى من طابع الاسلام فى حياة أهل هذه البلاد ، فان كانت للفتح

الاسلامى تلك السرعة المسرفة ، ولاستعاره ذلك البقاء العتيد ، فلا تعجب لقولنا : إنه مسح بيده القادرة على ماضى تلك الأمم ، وأنساها قديم شخصيتها ونفسها ، فيما أنساها من لغة لها ، وما أنساها من دين ، وما هون عليها من حرمة ماض موغل فى القدم ، ذاهب العرق فى الزمن .

وما محاولة العناية بالاقليمية اليوم ، إلا لونا من مدافعة هذه القوة الدامغة ، ومناضلة هذا الطابع الدامغ الراسخ . وهى محاولة لا خير فيها لدعاتها ، ولا خير فيها لمن يراد تحقيقها لهم ، لأنها لن تكون أكثر مما مضى من نظائر ، وما تكرر قديما من أشباه ، تضاءلت جميعا أمام ما صاغ الاسلام من نفوس أولئك الأتباع ، وما خلف فى قرارة أرواحهم من أثر .

...

والمصغى لهذا القول ، يستمع منه أنغاما لاهوتية تعتز فيها العروبة بالاسلام ويدرك من خلاله ما قد يفصح عنه أصحابه فى غير هذا الموضع ، إذ يصلون بين العرب والاسلام أو يرونهما فى حساب الحياة والتاريخ شيئا واحداً ، وهو رأى حظه من الصواب محدود أو هو معدوم . فالاسلام عدو هذه العصبية بدمائها وأنسابها وأجناسها ، وما قبل ولن يقبل يوما أن يعرج منها على شىء أو ينصر منها شيئا . وإذا كان العرب هم الذين تلقوا الاسلام ، ثم لقوا الناس به فلن يجعل صنيعهم هذا الاسلام ، دينا عربيا ولا دينا عصبيا ، ولا دعوة محدودة الأفق ضيقة العطن ، على نحو ما تتكثر به الشعوب حينا ما ، أو تعتز به الأمم ، أو تستغله الدول ، وتتجر به السياسة .

وهذه الدعوى التى تصل بين الاسلام والعرب تلك الصلة ، دعوى تعاون فى تأييدها عناصر سياسية أو دينية السمة ، لا إخال الاسلام يبقى منها على شىء ، ما دام هو ذلك الدين الانسانى ، العام العالمى الصالح للبقاء .

وإنه لعجب من العجب ، أن هذه العروبة التى اعتزت بالاسلام يوما ، واستندت إليه فى لون من النضال السياسى ، لم تلبث حين تغيرت بها الأحوال أن حورت فى موقفها ، وجعلت العروبة هى الشرق ، والشرق هو العروبة ، يستظهر فيها العرب المسلمون بقديم القول فيما بين الاسلام والعروبة من صلة ، ويخافت غير المسلمين من العرب ويجمجمون بذلك فى خفية ليجهروا بعدها بأن العروبة هى الشرق ، وأن الشرق هو العرب ، وتلك وأشباهها تيارات تحركها رياح وأنواء متغيرة ، ولا يثبت مثلها على الزمن ، فلا يقف عند مثلها العلم ، مهما تدوّ فى الحياة أو تحدث من ضجيج .

وفى حساب العلم ، يجب إطراح ذلك كله ، وتجريد هذا الاعتراض من الخلط بين الاسلام والعروبة حيناً ، أو بين الشرق والعروبة حيناً ، لننظر بعد ذلك فى أصل مايدعيه هؤلاء القائلون من انسياح العرب فى تلك الأقطار المستعربة ، بتعريب الاسلام ، وأنها صارت إلى عروبة موحدة ، يصح بعدها أن يؤرخ أدبها الواحد ، على أنه كائن عربى متماسك لاينظر فى جزء منه إلى إقليميته ، ولا يقدر فيه أثر بيئته . . .

. . .

ننظر فى هذه الدعوى بعد أن جردناها من الاستظهار بالعاطفة

الدينية فى الجمع بين الاسلام والعربية ، وبعد أن أبعدناها عن السياسة ، فى اعتبار الشرق هو العروبة والعروبة هى الشرق . ننظر فيها بعد ذلك كله ، غير منكرين مطلقاً أن هذه الحركة الدينية التى دفع الاسلام إليها الحياة الانسانية بقيامه وامتداد دولته ، حركة كانت إنسانية وكانت تمدينية تمتاز عن غيرها من الفتح والتمدين ، بأنها كانت صاحبة رسالة حضارية ، ودعوة إصلاح اجتماعى .. وقد يقوم الفتح على رغبة التوسع وحب السيطرة وحق القوة ، فيختلف بذلك فى نشاطه وفى نظر الناس له ، وفى قبولهم لدولته ، عن مثل هذا الفتح ذى الرسالة والدعوة ؛ وبذلك يكون لهذا الأخير ماله من الميزة ، والفروق فى سيره وسرعته ، ومدى نجاحه ، وما إلى ذلك فيظفر بما يفترق به عن غيره ؛ لكن دون أن يكون ذلك أعجوبة لم تجر على ناموس ، أو معجزة لم تنطبق على سنة ، ولا يضبطها قانون .

ومن هنا ننظر فى هذا القول ، مقدرين أن الاسلام — وهو دولة ذات هدف ، وفتح ذو رسالة — قد خلف فى حياة من جاءهم آثاراً أبقى من غيرها وأعمق ، فكانت فى حياتهم أطول عمراً وفى كيانهم أرسخ مدى ، وذلك إذ جاءهم على فترة من الاصلاح وظلم من الحكام ، وحاجة إلى الحق ، وظمأ إلى العدل ، وهيأ لهم من ذلك ماخفف لأواءهم ، وأراح أفئدتهم .. كل ذلك قد كان ، أو بعضه الذى كان ، فهو سبب بين ، ووجه جلى لما ظفر به هذا الأثر الاسلامى من رسوخ وخلود ، دون أن يكون ذلك لوناً من الأعاجيب ، أو ضرباً من الخوارق ، أو عملا شاذاً فى حساب الحياة وسيرها .

وإذا كان هذا هو ما بين به القائلون دعواهم عن تغلغل الدم العربى فى هذه الأقطار وتعريب أهلها ، فقد تم هذا التعريب أو ماتحقق منه كما تمت الخطوات الأخرى فى غير إغراب ولا إدهاش ولا مفاجأة للباحث الاجتماعى الذى يؤمن بسنة الله ، ولن يجد لسنة الله تبديلا .

لقد اتصل العرب بأهل تلك البلاد ، فأخذوا وأعطوا ، وخالطوا واختلطوا ، وصاهروا ونسلوا ، فكانت الشعوبية التى فتكت بالعصبية العربية ، وأباحت حمى هذا الدم العربى الممنع ، وكان من ورائها ما أصاب دم العرب ، وشخصية العرب ، ودولة العرب . . .

وإذا كان هذا هو نصيب المعتزين بدمهم الحريصين على نقائه ، فكيف يدعى أن هؤلاء القوم قد أصاروا الناس إليهم وأفنوهم فيهم ، مع أن قضية الحياة الواقعة أنهم هم فنوا ، وهم تبددوا فى الناس ، ففقدوا فيهم شخصيتهم ، وفقدوا بذلك ما فقدوا من سلطانهم .

. . .

ولاأطيل فى هذا ، بل أريح هؤلاء القائلين ، فأقرر معهم أن ما كان من العرب لم يكن انسياحاً فى البلاد ليعربوا أهلها ، بل كان أنتقالا للعرب بقضهم وقضيضهم فهاجرت قبائلهم ، يعمرون البلاد بعد مايزيحون عنها أهلها أو يبيدونهم منها . . ليكن ذلك الذى كان ، فقد صار الشعب العربى خارج جزيرته — إن كانت له منها بيئة موحدة فى بعض الرأى — صار شعباً تنوعت به البيئات وتعددت الأصقاع ، وتفاوتت المنازل ، ومثل هذا حين يتم للشعب الواحد ، يظهر أثره فى كيانه العقلى ، ووجوده ، وشعوره الفنى ، وشخصيته الحيوية فى

جملتها . . . وهاهم أولاء البريطانيون قد استعمروا أمريكا على نحو من هذه الهجرة المنتقلة ، التى أبادت الهنود الحمر — أو كادت — وحلت محلهم ، فكان دم واحد ، وكان لسان واحد ، وكان أصل واحد بكل معانى الوحدة . فهل منع هذا ناموس الحياة من أن يحدث أثره ، فيجعل من البريطانيين فى بيئتهم الجـــديدة أمريكانيين ، لهم شخصيتهم ، ولهم مقوماتهم ، ولهم فنهم ، ولهم أدبهم الخاص .

وإذا مامثلت لك بما مضى من حياة هؤلاء البريطانيين فى أمريكا فانك لاتزال تظفر فيه بأمثلة جديدة . . . خذ منها مثلا هذا الشعب السورى المهاجر ، وهو عربى من أولئك الذين نتحدث عن انسياحهم وانتقالهم ، فقد هاجر السورى إلى أمريكا : جنوبية وشمالية .

وهاجر كذلك إلى أنحاء الشرق المختلفة : مصر ، والعراق ، والأفغان وغيرها ، ثم بقى منه من بقى فى بلاده . . . وصح فى واقع الحياة أن تكلموا جميعاً العربيـة ، وهيأ لهم الزمن أن اشتغلوا بأدبها ، فى أزمنة واحدة أو متقاربة جد التقارب ، فهل سوغ هذا كله لقائل أن يقول : إن أدب السوريين فى مصر ، هو أدبهم فى مهاجرهم الشرقية ، وهو بعينه أدبهم فى مهاجرهم الغربية . وأن ما بأمريكا الشمالية منه إنما هو عين ما فى أمريكا الجنوبية ؟ ! هل استعملوا لغة فنية واحدة ؟ ! هل صاغوا أساليب واحدة ؟ ! هل طرقوا موضوعات واحدة ؟ ! هل تناولوها تناولا واحداً ؟ هل تنتظم حياتهم الأدبية أدوار موحدة ، إذ كان يجمعها زمان واحد ؟ ! كتلك الأدوار التى يدرس الأدب العربى فى أقاليمه المختلفة محبوساً فى داخلها ، متى اتحد عصره ، ويكفى لوحدته أنه

فى قرن كذا أو على عهد كذا ، وتحت حكم سياسى واحد ، هو الأموى أو العباسى أو التركى بعد سقوط بغداد . . . الخ ؟!

لا شك أن هذا وجه من الرأى لا يطمئن إليه أحد . وهل مطران والحداد ، وشدودى ، ومن إليهم فى مصر . تنتظمهم وحدة فنية مع جبران وأبى ماضى وإخوانهم فى أمريكا . ثم مع الخورى والمعلوف واليازجى وأضرابهم فى سوريا ، وإن اتحد بهم العصر أو تقارب ؟ ! لا شك أن لا ؛ ثم لا .. فلا أصل يصح لهذا القول بانسياح العرب فى البلاد الاسلامية المتباعدة ، حتى عربوها جميعا ووحدوها جميعا فى هذه العروبة ! ؟

. . .

وفيما ألممنا به من حديث العروبة والاسلام ، والعروبة والشرق ، مايحتاج إلى مزيد بيان يحوجنا إلى أن نمس آراء وفكراً ، ليست بسبيل مما نحن بصدده من حديث الدراسة والمنهج ، وإنما هى مسائل عملية ، مما يعنى به الحزبيون ويقف عنده المتحدثون فى الحكم وتدبيره . يعلنون خشيتهم من هذه الاقليمية فى الأدب والدرس ، أن تغرى بالاقليمية فى العواطف والميول ، فتنفصم بذلك عروة مايستمسكون به من الوحدة الشرقية ورابطتها ، أو الوحدة العربية وصلتها ، ومع أن مثل هذه الوحدات مما لم يخلقه مؤثر حقيقى ، ولم تكن فى أغلب الأمر استجابة لفكرة محضة ، أو رأى مختمر . . . فإنا بغير حاجة إلى التنقيب عن أصول هذه النوازع وأسباب رواجها . . . وإنا — فى الوقت نفسه — لنحتفظ لأصحابها بعواطفهم

نحوها ، وبمصالحهم فيها ، أن كانت استجابة لحاجة عملية ، أو خطة فى النضال بين الشرق والغرب ، أوما إلى هذا . . نحتفظ لهم بذلك كله ، لنطمئنهم جميعا إلى أن هذه الأقليمية الأدبية، ليست إلا ضربا مما يعمد اليه البحث العلمى ، من حل المركب إلى بسائطه ليبحثها شيئا فشيئا ، توصلا بذلك إلى معرفة المركب معرفة دقيقة تامة . فان كانت وحداتهم التى يدعونها من التماسك بما يصورونها به ، وكما يريدون لها ، فلا جناح عليها من هذه الاقليمية ، ولا خطر عليها منها إن شاء الله . لأنا لانهتف بالاقليمة استجابة لرغبة أو هوى ، أو ميل أو غرض ، حتى يعارض هذا شيئا من آمالهم أو يناوئه — إنما ندعو للأقليمية — باسم المنهج التحقيقى الدقيق ، فى تصحيح البحث وتوجيهه وتوزيعه . فلا اتصال مطلقا بين مصرية الأدب ، وفرعونية مصر ، بحيث نهدر فيها الجانب العربى أو ننكر الميراث العربى ، أو نهون من شأن هذا الدور العربى فى حياة مصر . كلا ! لن يحركنا شىء من هذا ، ولن نثير به أى قدر من النزاع حول أمثال هذه الدعاوات . . وكيف ونحن إنما ندرس هذه المصرية الأدبية فى صورتها العربية ، ودورها الاسلامى ، أيام إذ عرفت ذلك كله ، وانحازت اليه . وشاركت فيه ، وعملت من أجله . فليطمئن بال أولئك السياسيين أو العمليين من هذه الناحية ، وما يمت إليها بصلة ، فليس شىء منها يعنينا أن نثبته أو ننفيه ، ولو فرض أن شيئا من ذلك مما نعنى به أو نعرض له فإنا سنقدر قبل كل شىء أن هذه الوحدة المركبة على ما يتمثلونها ، لن يضيرها أن يشعر كل جزء من أجزائها ، وكل جانب من جوانبها ، بوجوده وذاته ،

وشخصيته ، فيكون بذلك جزءاً وعنصراً نافعا مجديا على الوحدة التى يدخلها ، والاتحاد الذى يشاطر فى تأليفه وتقويته . . . ونحن فى كل حال نقدر فى يقظة واهتمام ، أن هذه العصور التى ندرسها عربية السنخ ، عربية الجذر ، إسلامية العرق ، ما ننكر شيئا من ذلك ولا نشاح فيه أحداً ، فمصر المدروسة لنا فى هذا الأدب المصرى ، أنما هى مصر الاسلامية العربية ؛ فى العصر الذى امتدت فيه للاسلام دولة ، وقام العرب بنصيب من دفع الانسانية إلى الحياة . وتوجيهها للنهوض . وكذلك تؤرخ البلاد الأخرى ؛ هذا التاريخ الأدبى الأقليمى لهذا الدور ، تفعل ذلك الشام العربية الاسلامية ، والعراق الذى هو كذلك ، والمغرب الذى له هذا اللون ؛ ومن هنا تكون العربية الأولى منبعا وأصلا لهذه الآداب الاقليمية ، فى كل صورة من صورها ، وتكون اللغة العربية الأولى ، والأدب العربى الأول فى الجزيرة ، هى الأصل الجامع الذى انشعبت عنه هذه الآداب ، فهو يقوم منها مقام النواة والجرثومة . وإن أبيت ألا أن تلتمس لذلك نظيراً فى لغات الدنيا ، فاعتبر هذه اللغات الأقليمية وأدبها ، ذات شبه قريب أو بعيد ، بفروع اللاتينية مثلا من لغات أهل أوربا ، أو بفروع الجرمانية من لغات هذه الأمم ؛ فتلك وحدة أصل لاسبيل إلى نكرانها . ولا نحن نهون من قيمتها فى ربط ما بين هذه الفروع وتوحيدها إن قصدت السياسة ذلك . أو اقتضته الحياة العاملة . . .

ويوم تتداعى تلك الأمم بالعروبة . فلن تنكر مصر المصرية الشاعرة بشخصيتها . المؤمنة بكيانها المتحيز ، ووجودها المتمثل . . . لن تنكر ما فيها من تلك العروبة . بل ربما تجد فى بحثها عن عناصر هذه

الشخصية المصرية ، أن الدم المصرى مثلا قد تخلطه ، فتجمعه بالعرب قرابة قوية ، وصلة وثيقة . كما أنها ربما تجد من هذا البحث أواصر أخرى للتواصل وراء الدم والنسب . مما يجمع بين الأمم معنويا وروحيا ، ويقرب صلاتها ونواحى نشاطها . ومثل هذا سنعرض له كله فيما بعد عرضا غير متعجل ولا موجز .

فليتركوا هذه المصرية تعرف نفسها حق المعرفة ، لتعرف كيف تتصل بغيرها ، ولتتبين أساس هذا الاتصال ، ولتقدر نواحى قوته . وسيكون هذا — فيما أرى — أجدى على تلك الصلة ، وآكد لهذا الارتباط ، وأقوى على أبقائه .

ملاحظة

وفى مناقشتنا لهذه القالة الأخيرة ضد الاقليمية ، قد عرضنا لأثر الاسلام فى حياة الأمم التى اتصل بها ، وأقررنا من هذا الأثر ما أقررنا ، واعترفنا من هذا التغيير بما اعترفنا ، ومن الوفاء بحق المنهج الصحيح للبحث ، ألا نترك هذا الاقرار وذلك الاعتراف فى إطلاق وعموم ، قد يفتتن بهما من يسمعهما ، وقد يخدعان الباحث ، أو يخدعاننا نحن حينما نعرض قريبا لما خلف الاسلام فى حياة هذه المصرية ، التى لقيها فيمن لقى من أمم وشخصيات ....

لا نترك هذا الاقرار وذلك الاعتراف بأثر الاسلام فى الجماعات ، دون أن نشير إلى ضرورة القصد فى تقدير هذا الأثر ، والاعتدال فى بيان عمقه ومداه ، وبخاصة حينما نلاحظ أن بعض المتزيدين المتكثرين من أصحاب الدعوة الدينية الواعظة ، أو من أولئك الذين لا يعرفون مجد الشرق إلا دعوى عن ماض باهر ، وآباء أمجاد ، وآثار غراء لا يسمح الدهر بمثلها ، فيعيشون عظاميين فى قفرة من الماضى ودنيا من الذكريات ، يطلقون لخيالهم العنان فى وصفها والاشادة بها ، مفاخرين الدنيا جميعا بمجدها ، راجعين كل جديد إلى موروثها ؛ وهى نزعة قد سيطرت على حياة الشرقيين حينا من الدهر ، وخلف فيها كتاب وقوالون آثاراً ، لعلها إن وقعت إلى الشباب تخدعه ... وما تعنينا هنا خدعتها الاجتماعية — وإن كانت خطرة — بقدر

ما تعنينا خدعتها العلمية وتضليلها لطريقة البحث، والنظر الى الحقائق فى أناة واعتدال . . .

نريد لهذا كله أن نقول : إن الإسلام وقد جاء العرب وهم على حال بعينها . . ثم جاء من عداهم من العالم وهم فى حالة اجتماعية بذاتها ، لم يمسهم مسا سحريا ، يحول العرب عن حالهم إلى ضدها ، أو ينقلهم نقلة معجزة ترد ظلامهم نوراً ، وجهلهم علما ، وفظاظتهم سمو خلق ، تحيل بأكسير سرى ، معدنهم من النحاس إلى الذهب الابريز. ولا كذلك فعل فى حياة الأمم الأخرى التى جاءها ، فعكس سيرها وغير وجهتها وبدلها خلقا غير خلقها ، أو ابتدأ فى حضارتها وحياتها ، عهداً جديداً لاصلة له بسابقه ، فجديدها لا يرتبط أبداً بقديمها . . . الخ ما يمكن أن يشم من عبارات الاعتراض الأولى التى أوردناه بها ، والتى قد ينخدع بها متساهلون ، أو متنفجون ، أو ساهون عن سنن الله ونواميس الكون ...

لقد ظل العرب بعد إسلامهم ، هم القوم الأولون ، قد دخل عليهم من الاصلاح بالاسلام ما تحتمله طبيعتهم ، وما تستطيعه فطرتهم ، وما تقبله شخصيتهم . . وكذلك كانت حياة الأمم التى لقيها الاسلام ، استمراراً لحياتها الأولى ، وإن تأثر هذا الاستمرار بما يمكن أن تتلقاه الطبيعة من تأثر بجديد يطرأ ، أو علاج يتم ، أو إصلاح يحاول ... وفى هذا المقام يجدر بى أن أشير إلى ما يقرره الباحثون فى هذا ، ومنه ما عرض له المستشرق السياسى الألمانى كارل هينريش بيكر ، فى مقال له عنوانه : « تراث الأوائل فى الشرق والغرب » ترجمة الأستاذ عبد الرحمن بدوى ضمن دراسات للمستشرقين عنوانها

« التراث اليونانى فى الحضارة الاسلامية » وفى هذا المقال ، يتحدث بيكر عن اتصال النظام الاقتصادى الاسلامى بما قبله ، ويعقب قائلا : ص ١٤

« .. وهذه العملية عملية طبيعية » إلا أنه لما كان قد نظر إلى الاسلام باعتباره شيئا جديداً كل الجدة ، واعتبر من جهة أخرى أن الدين والحضارة شيء واحد ، فقد نشأت أسطورة حضارة العرب — تلك الأسطورة التى ألقت غشاء على عيون المؤرخين فحالت بينهم وبين رؤية هذه الحقيقة الناصعة ، وهى أن الحضارة القديمة قد استمر حاملوها هم حاملوها الأصليون ، واستمر مسرحها هو مسرحها . ذلك أن الاسلام كان هو الأجنبى الغريب الذى أراد أن يغزو العالم القديم المتأخر ، ولكنه خضع من بعد لما كان عليه هذا العالم القديم من تفوق وسمو ، ولم يستطع أن يجعله عربيا إسلاميا إلا فى الظاهر فحسب . » ، كما عاد إلى هذا المعنى ثانية فقال ص ١٥ : « ... وإذا ما بحثنا حضارات البلدان التى فتحها العرب ، استطعنا أن نحكم بسهولة أن كل شيء بقى فى الاسلام كما كان على عهده القديم ، لم يضف إليه جديد ، سواء فى ميدان السياسة ، وفن الحرب ، والاقتصاد ، أو العلم والفنون والصناعات ، وإن المرء لتداخله الدهشة ، من المترجمات الضخمة العديدة ، فيحسب أن أفكاراً جديدة قد أدخلت إلى مهد الحضارة الاسلامية ، ولكن هذا الرأى باطل من أساسه ، فكل شيء بقى عملياً كما كان من قبل » .

تلك هى عبارات للمستشرق حول الفكرة التى آثرنا استيقاف

الدارس عندها ، لفتا إليها... وعبارة الكاتب إن يكن فيها شيء من خشونة التعبير أو عدم التحفظ فيه ، مما لا يلقاه المتدين المعتقد فى سهولة ، فان الفكرة فى أساسها وأصلها صحيحة مقبولة ، على نحو ما قدمنا لها من بيان .

ولا يسع المؤرخ حين يؤمن بأن للحياة نواميس وقوانين تجرى على وفقها ، وحين يكفر بالطفرة فى هذه الدنيا ، ولا يدين بأن الأرض مسرح للخوارق ، وميدان للمفاجآت ، لا يسعه إلا أن يسلم بذلك كاملا فى حق العرب . وما يمكن أن يكون قد نالهم من تغيير وتغير بالدعوة الاسلامية ، ودفعها الجديد ، وأن يسلم كذلك بأن الإسلام حينما جاء من جاء من الأمم فدفع حياتهم دفعا جديداً ، إنما دفعها لتسير من حيث كانت قد وصلت ، أو لتتابع السير من حيث انتهت فى أمسها القريب ، وعلى ما ارتبطت به من ماضيها البعيد . . .

ولو كان العرب أمة متحضرة قد حملت إلى الأمم الأخرى نظما بعينها وأوضاعا خاصة جربتها من قبل وأقرتها — وهو ما لم يكن من أمر العرب عند الفتح — لو كان الأمر كذلك لآمن كل باحث أن هذه النظم وتلك الدعاوى الجديدة التى حملها العرب إلى الدنيا ، قد تفاعلت مع ما لتلك الأمم من أشباهها ومضت الحياة تسير فى ذلك ، على المعروف الثابت من سننها .

وعلى هذا سنقدر فى بحثنا دائما أن الاسلام والعرب قد جاءا مصر ، على قديم من أمرها ، وماض من دولتها ، وسابق من فنها ، ومستقر من حياتها ، فكان بين الاسلام والعرب فى مصر ، ما يكون حين يلتقى كائنان ، ويتبادلان التأثر والتأثير... وسنعود إلى هذا بالبيان بعد.

— ٣ —

ومما سمعت فى إنكار الاقليمية ، أن هذا القرآن وما إليه من أصول الاسلام كالسنة ، قد وحد الثقافة الاسلامية فى هذه البلاد التى اعتنقت الاسلام ، فكانت الثقافة ذات الأصل أو الأصول الواحدة ، مصدراً لأدب واحد متماثل ، لا يفرق فيه بين مصرى وأندلسى ومشرقى .

وهذه القولة فى جملتها تندرج تحت الوحدة العامة المدعاة آنفا ، والتى وقفنا عندها وقفة غير قصيرة ، إلا أن هذه الوحدة هنا تخصص بأصول أدبية معينة ، وتعد هذه الأصول دينية اعتقادية ليكون لها بذلك ضرب من قوة التأثير على معتنقيها ، يوحد منها ما افترق مع ضرب من قوة الاقناع ، لسامعى هذه الدعوى . . . ولكنها مع ذلك كله لن تكون فى حساب العلم وتصحيح البحث قوية التأثير ولا قوية الأثبات .

* * *

فأما وحدة هذه الأصول الثقافية ، وأما أنها لونت الثقافة الاسلامية تلوينا متشابهاً فنعم .. وأما أن هذا التشابه يهيء لوحدة تامة .. وأن هذه الوحدة تصنع من الحياة الفنية لهذه البلاد كياناً لا يختلف فيه قطر عن قطر ، فلا ، ثم لا .

إن هذه الأصول من قرآن وسنة ، خليقة أولا بأن تكون منابع شريعة واحدة ، وقد رأينا هذه الوحدة التشريعية ادعائية ، أكثر كثيراً مما هى حقيقية ، وسمعت من صور الاختلاف التشريعى ما شرحنا من قبل . وقد عرضنا عند ذلك للاختلاف الاعتقادى بما فيه الكفاية ،

فاذا كانت هذه الأصول — وهى أصول الاعتقاد والعمل — لم تترك لنا وحدة فى المقالات الاعتقادية ، ولا فى تفاصيل التقنين ، فقد هان أمر ما تحدثه من وحدة أخرى وراء ذلك .

وأحسب أن صاحب هذه القولة المشتبهة وسامعها ، يشعران بأن شيوع هذا القرآن بين تلك الأمم على اختلاف ألسنتها وألوانها ، وان كونه كتابها المعجز ، ومثال أدبها السامى الفريد كاف لأن يوحد تذوقها الأدبى ، ومزاجها الفنى ويردها إلى أصول فى ذلك مستقرة ، تقيم حياتها الأدبية على أساس واحد .. ولعل ذلك من أقوى ما يحسه المعترض ويشعر به سامعه ولكن ؛ لا أيضاً .. ففى قضايا التاريخ قضية فى تاريخ الأدب . والنقد الأدبى فى العربية ، وما إلى ذلك من دراسة أدبية ، قضية كبرى فى حياة هذه الدراسات وتاريخها ؛ هى قضية «إعجاز القرآن» .. وقد رأينا معتقدى هذا الإعجاز ومتذوقيه ، تختلف بهم السبل : فمنهم من ينكر على غير العربى أن يجده فهو يرده إلى حس أدبى لا يعلل ... ومنهم من يعلل هذا الإعجاز ، ثم منهم بعد ذلك من يقول فى التعليل بكذا وكذا ، ومنهم من يقول فيه بكيت وكيت .

على أن منهم مع ذلك من ينكر هذا الاعجاز البلاغى إنكارا .. وما القول بالصرفة إلا إنكار جلى لأن يكون القرآن فى لفظه ومعناه غير مقدور للناس ولا مستطاع .. بل هو فى متناولهم ومستطاعهم .

وإذا كانت تلك مذاهب القوم المختلفة ، فى إدراك قيمة هذا الكتاب الأدبية — وهى مسألة أدبية آزرتها دعوة دينية عامة ، وتوجيه قرآنى

موحد شامل — فهل تراهم فى تأثرهم بهذا الكتاب إلا جارين على نحو هذا الافتراق والاختلاف ، ومنقسمين شيعاً وطرائق ؟! فان اجتمعوا على قراءته ما شاء الله أن يجتمعوا ، وإن اجتمعوا فى بعض فهمه على مايصح أن يجتمعوا عليه ، فما أحسب ذلك سينتهى بهم إلى شىء من وحدة أدبية ، أو إلى قريب من هذه الوحدة ، بحيث يذهب عملهم الأدبى فى حساب التاريخ مذهباً موحداً ، ويكون فى رأى الزمن كائناً متمثلا مشخصاً ، يؤرخ فى ظروف واحدة ، وبخطوات واحدة ، أحسب أن لا!!

...

وبعد ، فما يستطيع البحث الصحيح أن ينكر قط أن أشياء قليلة أو كثيرة ، قد ألفت بين الأقاليم الاسلامية ، وردت أهلها إلى ألوان من التشابه ، وضروب من الاشتراك . قد يكون من بينها ماهو أدبى محض صدرت عنه آثار قد تتشابه فى هذه الأقاليم على تنائيها ، ولكن الذى يسلم بهذا التشابه وأسبابه لا يسلم بأنه التشابه المطلق التام الذى يصير إلى وحدة تلغى أسباب الافتراق والاختلاف ، التى هى أمور طبعية واقعية عملية ، مادية أو نفسية ، لها آثارها البعيدة الواضحة فلا تسليم **التشابه يثبت الوحدة ، ولا تقرير التعدد ينفى فى شىء** ما ضروباً من التشابه وذلك قدر من الحق ينبغى ألا نغفله أو يغفله الباحثون حينما يلمحون مظاهر هذا الشبه أو يشعرون بأسبابه ، وتلوح لهم عوامله ، فى أمور عقلية أو عملية أو فنية .

وليست الدعوة إلى هذه الاقليمية إلا محاولة مدققة فى تاريخ الأدب ، تقوم على أساس من سلامة المنهج العلمى المحرر الذى

يحاول تسجيل الحقائق الصحيحة مهما تكن خفية المظهر ومهما تكن مستورة وراء ظواهر خلابة أو خداعة ، وطالب هذه الدقة فى عصرنا الحاضر لا ينبغى له ، بل لا يحسن منه ، أن يخطىء الفوارق أو يساير الظواهر ، وينخدع بها .

وهذا أصل نؤصله لنعتمد عليه فيما بعد إذ نشبعه بيانا .

— ٤ —

وينظر قائلون فى الثروة الأدبية العربية بعامة ، بعد أولئك الذين نظروا فى أصول ثقافتها الاسلامية ، فينكرون بهذا النظر فكرة الاقليمية .

يقولون : ماهذه الثروة الأدبية فى الأقاليم الاسلامية بمختلفة — كما تذكرون — فى ألسنتها وألوانها ، ثم ثقافتها التاريخية ؟ إنما هذه الثروة الأدبية العربية رغم هذه الظواهر كلها تراث واحد ، لا يتعدد ولا يتفاوت ، ولا يختلف — توزعته فنون واحـــدة فى الشعر ، فلم يظهر منه فن فى إقليم دون إقليم غيره . بل الشعر هو هو فى أبوابه المعروفة ، وموضوعاته المتداولة المشتركة ، لاتجد فيه حول هذا اختلافا يلفتك ، ولا تفاوتا ينبهك .. كما توزعتها فنون من النثر أيضا هى هى ، لا تتغاير فى مشرق عنها فى مغرب ، بل جرت أبواب النثر على رسوم مؤصلة لم تختلف فيها بيئة عن بيئة ، اختلافا من هذا الذى ترجون أن تكون الطبيعة قد عملت فيه عملها ، أو تركت البيئة فيه أثرها ، وما يزال المتأدب يقرأ القصيدة الشعرية فى عهد من العهود وعصر من العصور ، لا يستطيع أن يتبين فيها فرقا ، مصدره أن قائلها عراقى شرقى ، أو يمنى جنوبى ، أو مصرى بعيد عنهما ، أو مغربى موغل فى البعد . وكذلك الحال فى الرسالة أو المقامة أو غيرهما من النثر .

نعم ، قد تختلف الأعصر ، ويتفاوت فن عن فن ذلك التفاوت الواقع فى رجال القطر الواحد والعصر الواحد ، وأما ما وراء ذلك فشىء لانجده ولا نتبينه ، فلا نقول به .

وهم يقدمون لذلك مثلا ، يرونه صارخ الكفاية ، قوى الاثبات ، إذ يقرنون الأدب الأندلسى فى أقصى المغرب بالأدب العراقى فى نائى الشرق ، ويرون القدماء من قبلهم قد شعروا بوحدته ، وقرروا ذلك .. فهذا « الصاحب بن عباد » يرى كتاب « العقد الفريد » لابن عبد ربه فيقول : « هذه بضاعتنا ردت إلينا »

وهذا « ابن بسام » صاحب « الذخيرة » وهو أندلسى ، يقول : « .... إلا أن أهل هذا الأفق — يعنى الأندلس — أبوا إلا متابعة أهل المشرق ، يرجعون إلى أخبارهم المعتادة ، رجوع الحديث إلى قتادة ، حتى لو نعق بتلك الآفاق غراب ، أو طن بأقصى الشام أو العراق ذباب ، لجثوا على هذا صنما ، وتلوا ذلك كتابا محكما — ج ١ ص ٢ —

يحتج أولئك القائلون بمثل هذا ثم يمضون قدما فينكرون الفروق المنتظرة ، من اختلاف الاقليم وتفاوت البيئة — ولهم فى ذلك مكتوب أحور إليه . فهو من صنف ما قدمت أول هذا الموضوع ، من قول الشباب المدون عن فكرة الاقليمية . ولعل أشد ما فيه — كما قلت — أنه من قول الشباب ! ! ومن أهل الجامعة ! ! ومن أبناء مصر . . ! ! فهم يقررون اشتراك عناصر مختلفة فى ماضى هذا الأفق الأندلسى ، ثم ينكرون أن يكون لهذه العناصر أثر فى الحياة العربية التى خلفت عليه ، ويستظهرون أن تأخر النهضة العلمية والأدبية فى الأندلس حتى القرن الرابع الهجرى ، هو الذى ساعد على اندثار هذه المدنيات دون أن يبدو لها شأن فى الحياة العقلية ، فيقولون :

ومهما يكن فإن أثر التراث العقلي القديم في الأدب الأندلسي كان ضعيفاً. بل إن الانسان ليلاحظ أن هذا الأدب مدين في نهضته للتراث العباسي، كما يلاحظون مع ذلك، أنه لم تقم بالأندلس حركة ترجمة كالتي قامت بالمشرق، ولم يكن فيه طوائف دينية من مجوس وزنادقة كما كان هناك. إنما كان يقرأ الثقافات الأجنبية فيما يأتيه من المشرق، وإن الانسان. ليخيل إليه أن كل شيء في الأندلس قد أسس على نظام القوم هناك كما كان الشأن في أمريكا الحديثة حين هاجر أهلها من أوربا، فانهم ظلوا يستمدون منها حتى القرن الحاضر ما شكلوا به حياتهم وعلمهم وفنهم. ويمضون في بيان هذه المشابهة بإسراف يجعلهم يرون « المجتمع الاسباني — أي الاسلامي — مديناً في كثير من نواحيه للمجتمع العباسي »، إلى حد القول بأن الناس فيه كانوا يعيشون على نحو يشبه معيشة العرب في المشرق. وقد عم التأثير كل شيء في الجانب الاجتماعي. وأما الجانب العلمي والأدبي فقد مثل التقليد فيهما في كل شيء، إذ لا نجد في الأندلس قبل القرن الرابع شيئاً من ذلك مستقلا، إنما كل ما عندهم بضاعة مجلوبة.. ونفس القرن الخامس، قلما نجد فيه فلاسفة أو علماء مستقلين، فما يزال الأندلسيون يلخصون أو يعلقون على الثقافات والمذاهب المشرقية. وإذا رجعنا إلى الآثار الأدبية التي خلفها القوم وجدنا ظاهرة الصوغ على نماذج المشرق واضحة، فالكتب والمؤلفات تؤلف على نمط ما في المشرق، ونماذج الشعر نفسها كأنها تصاغ على

أنماط مشرقية خالصة ، ففلان يتكلم على نمط فلان ، وفلان ينظم على نمط فلان .

وعلى هذه الشاكلة لا يزال من يقرأ فى آثار الشعر الأندلسى أثناء القرنين الرابع والخامس ، يجد هذا التقليد للنماذج المشرقية وهو تقليد لا يقف عند المشابهة فى الوزن والروى ، بل يمتد إلى المشابهة **فى المعانى والأساليب** . . . والمذاهب الفنية فى المشرق كانت تنقل نقلا إلى الأندلس ، وكان الشعراء يقلدونها هناك . ولو أنه تقليد لم يكن دقيقاً ويجمعون بين طرق ومذاهب مختلفة لغير شاعر واحد ، ولم تحدث بالأندلس مذاهب جديدة فى صناعة الشعر ، بل وقفوا عند المذاهب التى عرفت بالمشرق . وإذا كان الأندلسيون قد أحدثوا شيئاً من التغيير فى الشعر العربى بموشحاتهم وما إليها من أزجال ونحو ذلك ، فان حدوث هذا لم يحدث ثورة على الأوضاع القديمة فى الشعر العربى إلا من حيث الأوزان والقوافى . .

ولا يزال الأمر من الوحدة عند صاحب هذا القول بحيث يقرر فيه أخيراً : « أن الطبقات التى كونها هذا الشعر أثناء هذه العصور — القرنين الرابع والخامس — والعصور التالية كانت متماثلة ، وأن تحليل إحدى طبقاته كاف للوقوف على معرفة ما انتهى إليه شأنه فى الطبقات الأخرى . فحتى الفارق الزمانى فى العصور المختلفة لا يتحرج أصحاب الوحدة فى الآداب العربية ، من أن ينكروه على أدب الأندلسى ، وأن يروا أن تحليل إحدى طبقات الشعر فيه فى عصر كاف للوقوف على معرفة ما انتهى إليه شأنه فى الطبقات الأخرى ! ! !

والفكرة السابقة فى إنكار إقليميـــة الأدب ذات شقين :

أصل مجمل هو وحدة الآداب العربية والثروة الفنية من القول ، على اختلاف أقاليمها المتنائية . وحدة فى الفنون والموضوعات ، والأغراض والمعانى .

ثم فرع هو كالتطبيق على هذا الأصل ، يثبته ويؤيده وهو أن الأندلس على نأى الدار ، وبعد الشقة ، والتفاوت ، قد كانت صورة من المشرق لاتعدو ذلك فى شىء ما .

وفى عرض الفكرة بشقيها على نحو ما رأينا ، شىء من الدخل يحسن قبل التصدى لها أن نبينه ثم نزيحه ليبقى الجوهر السليم منها . نتحدث بعد ذلك عنه محدوداً نقيا .

وأكثر هذا الدخل فى الحديث عن الأندلس مكتوب منضبط ، يؤمن الاختلاف فيه عند الملاحظة عليه .

فمن ذلك ما فى دعواهم من أن الأقدمين أنفسهم قد قرروا ، عدم الفرق بين المشرق والأندلس ، واحتجاجهم فى ذلك بعبارة الصاحب عن العقد الفريد « هذه بضاعتنا ردت إلينا » .. فان ابن عبد ربه إذا ما ألف كتابه فى الاختيـار من عيون الأدب المشرقى ، ليتأدب به الشادون فى الغرب ، لايكون ذلك فى نفسه حجة عدم الفرق عند ابن عبد ربه والمتقدمين ... والصاحب ، إذا دفعته العصبية الشاعرة فى نفسها بالفرق بين المغرب والمشرق ، فقال : « هذه بضاعتنا ردت الينا » لايكون ذلك — فيما أرى — شاهد تسليم الاقدمين بعدم الفرق ! !

ومن أظهر الدخل ما فى عبارة ابن بسام المنقولة عن الذخيرة ، فانها

مقتطعة من مقدمة الكتاب ، قد فصلت عما قبلها وما بعدها، فبدت كأنها تقدير لاطمئنان المغاربة إلى التقليد المطلق للمشارقة ، مع أن المؤلف يوردها فى سياق يقوم على إنكارهذا ، ومدافعة استئثار المشرق بالحسن والميزة الادبية . «فابن بسام» يقول قبلها — ص ١ — : « وما زال فى أفقنا هذا الاندلسى القصى ، إلى وقتنا هذا من فرسان الفنين ، وأئمة النوعين قوم هم ماهم . طيب مكاسر ، وصفاء جواهر ، وعذوبة موارد ومصادر لعبوا بأطراف الكلام المشقق ، لعب الدجى بجفون المؤرق » . . . إلى أن يقول فى وصف آثارهم : «نثر لو رآه البديع لنسى اسمه ، أو اجتلاه ابن هلال لولاّه حكمه . ونظم لو سمعه كثير مانسب ولا مدح ، أو تتبعه جرول ماعوى ولا نبح » . وبعد هذا يذكر أن أهل هذا الأفق أبوا إلا متابعة أهل المشرق كما فى النص السابق ثم يعقب على ذلك منكراً بقوله : « وأخبارهم الباهرة ، وأشعارهم السائرة ، مرمى القصية(١) ، ومناخ الرذية(٢) ، لا يعمر بها جنان ولا خلد . ولا يصرف فيها لسان ولا يد ، فغاظنى ذلك منهم ، وأنفت مما هنالك ، وأخذت نفسى بجمع ما وجدت من حسنات دهرى ، وتتبع محاسن أهل دهرى وعصرى . غيرة لهذا الأفق الغريب . . . الخ» . فللمغاربة أدبهم وآثارهم ، لكنهم يكبرون المشارقة ويقدمونهم ، لاعتبارات اجتماعية أو سياسية ، ما يعنينا أمرها ، وابن بسام ينكر ذلك من أمرهم فليس فى عبارته شىء من شهادة الأقدمين للوحدة المطلقة بين المشرق القصى ،

---

(١) من معانى القصية : الناقة الكريمة النجيبة المبعدة عن الاستعمال ،
(٢) الرذى : كغنى من أثقله المرض ، والضعيف من كل شىء

والأندلس ، بل هو نفسه يؤيد ذلك فيما بعد فيقول آخر هذا الكلام — ص٢ — : «وليت شعري من قصر العلم على بعض الزمان ، **وخص أهل الشرق بالاحسان؟**». ويمضى قدماً فينكر كل الانكار هذا الجمود ، وإيثار عصر على عصر ، ويعلن هذا الانكار محتداً فيقول : «ولحى الله قولهم — والفضل للمتقدم — فكم دفن من إحسان ، وأخمل من فلان ؟ ، ولو اقتصر المتأخرون على كتب المتقدمين لضاع علم كثير وذهب أدب غزير» — ص٣ — ... فهو يشعر بالمغايرة ، ولا يطمئن إلى الفكرة الجامدة فى إمامة السابق . ومن هذا شأنه لا يسلم بتقليد المشرق ! بل هو — فيما أشعر أنا — يمضى إلى أبعد من ذلك ، فيحدث حديثاً واضح المقصد ، عن اختلاف البيئة وأثره إذ يقول — ص ٣ — ٤ :

« وذهب كلامهم — أى أهل الجزيرة — بين رقة الهواء ، وجزالة الصخرة الصماء كما قال صاحبهم عبد الجليل بن وهبون يصف شعره :

رقيق كما غنت حمامة أيكة وجزل كما شق الهواء عقاب

على كونهم بهذا الاقليم ومصاقبتهم لطوائف الروم ، وعلى أن بلادهم آخر الفتوح الاسلامية ، وأقصى خطى المآثر العربية ، ليس وراءهم وأمامهم إلا البحر المحيط ، والروم والقوط » فهلا تراه يشير بذلك إلى جمل من خاص حال هؤلاء القوم فى منزلهم وطبيعته ، وبعدهم من الوطن العربى وأثره ، وتلك منه فطنة إلى شىء مما يقال اليوم عن أثر البيئات ، وإن كنا لا نقف عند هذا لنستوفى منه شيئا . فلذلك مكانه الخاص ، وإنما حسبنا من ذلك إنكار أن يكون ابن بسام هذا قد قال بوحدة تلف المشرق القصى والمغرب الأندلسى !!

وإذا ما أشرنا إلى الدخل فى الاحتجاج بالنصوص المقتطعة وما أشبه ذلك الانحراف أوالتحريف ، فانا لنحس الحاجة الشديدة إلى التعليق على مظاهر للدخل فى التفكير ، ربما لا يقوم عليها إنكارهم الاقليمية ، لكنها قضايا عن سير الحياة الاجتماعية ، يخشى خطرها لو تركت هكذا دون تعليق . فلمثلها يعرض مؤرخ الأدب فتزل قدمه لوظن هذه هى الجادة . فلنشر الى مافيها ، ولو على ضرب من الإجمال .

فمن ذلك مارأينا من إشارة فى هذا الحجاج الى العناصر المختلفة التى اشتركت فى ماضى هذا الأفق الأندلسى ، وإنكار أن يكون لهذه العناصر أثر فى الحياة العربية التى خلفت عليه ، واستظهار أن تأخر النهضة العلمية والأدبية فى الأندلس حتى القرن الرابع الهجرى ، هو الذى ساعد على أن تندثر هذه المدنيات ، دون أن يبدو لها شأن فى الحيـــاة العقلية الاسلامية!! وهم يعنون بهذه العناصر المختلفة — فيما يصرحون به — العناصر الفينيقية ، بما كان للفينيقيين من مستعمرات هناك ، وما جرى من صراع بين رومية وقرطاجنة ؛ ثم العناصر الرومانية بعد ذلك حين تم الأمر فى اسبانيا لدولة الرومان وصارت البلاد مستعمرة رومانية ، ثم الموجات الجرمانية الشمالية ، ولاسيما القوط الذين خضعت لهم البلاد ألى أن فتحها العرب . وقد كان لكل عنصر من هذه العناصر الثلاثة أثره فى حضارة البلاد ، لكنّ الأثر الفينيقى — فى رأيهم هم — يوقف عند الناحية الاقتصادية ، والأثر الرومانى يوقف عند الناحية الدينية كنشر المسيحية وجعل اللاتينية لغة الكنيسة الرسمية .. ثم يعدون تأخر النهضة العلمية والأدبية فى الأندلس حتى القرن الرابع الهجرى ، هو الذى ساعد على

ان تندثر هذه المدنيات ، دون أن يبدو لها شأن فى الحياة العقلية لمسلمى اسبانيا .. ويقولون :

ما نصل الى القرن الخامس . حتى نرى أهل اسبانيا هجروا اللاتينية واتخذوا اللغة العربية مكانها ، وترجموا اليها التوراة وغيرها من كتب الكنيسة . ويعلق الناقل على هذا القول بما يرد نسبته الى المؤرخ دوزى

والحديث عن هذه المدنيات القديمة . فى بلاد آل أمرها الى الاسلام والقول بعدم وصول آثارها إلى الحياة العقلية الاسلامية بعد ذلك ، حديث يتصل بما كان من مثل هذا من حضارة راسخة فى مصر ووصولها الى المسلمين حينما حلوها ، . وهذا هو ما يدفعنا إلى الوقوف عنده ؛ فوق ما لهذا الحكم العام من قيمة فى التأريخ الأدبى .

ومظهر الدخل فى هذا القول ، ما نراه من توجيه آثار المدنيات . وقصر كل مدنية على ناحية بعينها دون أخرى . فهذه دينية وتلك اقتصادية وهكذا على مثال ما سمعنا من قولهم .

ثم الاطمئنان إلى القول باندثار هذه المدنيات دون أن يبدو لها شأن فى الحياة العقلية !! فان هذا التوجيه لآثار المدنية لا يكون إلا عن دراسة طويلة عميقة مستقصية لتاريخ هذه المدنيات وأثرها فى حياة إسبانيا وذلك ما أحسب أن الكاتب العربى لم يتصل بمصدر واحد من مصادره ، وهو طبعاً لم يقم بهذه الدراسة بنفسه ولو كان قد اتصل بمصادر هذا من مباحث عظماء المؤرخين المتخصصين لبقى عليه بعد ذلك أن يتصل هو بالحياة العقلية الأندلسية فى العصر الاسلامى ، اتصالا يهيىء له أن يثنى أن شيئاً من هذه الحضارات القديمة لم يصل أثره إلى تلك الحياة .. ونحن — ولو أنها

حقيقة مرة — لم نصل إلى قدر مادى، من آثار هذه الحياة العقلية الأندلسية فى الأسلام تناله أيدينا وحدها دون عقولنا . وأكثر هذا فى يد الغرب لم نعرفه ولم نره ، أو فى أطواء الغيب ضائع مغمور . وما أحسبنا نجرؤ إلى حد أن نقول إن الحياة العقلية الاسلامية فى الأندلس أيضاً قد درست منا نحن درساً يهيء لنا القول بعدم بدو آثار الحضارات القديمة فى إسبانيا فى هذه الحياة ! !

وبعد هذا كله ، أليس من الدخل المفسد ، هذا التوجيه الفاصل لآثار الحضارات ؟ فمتى كانت الحياة الاقتصادية تنفصل عن الحياة العقلية ، كما تنفصل عنها الحياة الدينية ، انفصالا يبقى لهذه أثر فى تلك ، ولا يجعل واحدة منهما تلاقى صاحبتها ، أو تتفاعل وإياها فتؤثر فيها وتتأثر بها ؟!! فمتى كان هذا فى سير الوجود ومشهود الدنيا ؟ وأى شيء هى البيئة التى يبدىء الناس فيها ويعيدون ، ويحسبون منها المعنوى الاجتماعى ، ينعمون النظر فى آثاره على الكائنات الانسانية وغير الانسانية !! أليست الحياة الاقتصادية والدينية عناصر وجوانب لهذه البيئة المعنوية ؟! فكيف يذهل جامعى عن هذه المقررات الأولى التى كان القدماء فى مستواهم العقلى يدركونها فى إجمال وعموم . والمحدثون يدققون فيها ويفصلون ؟! وكيف لا تتصل الحياة العقلية بهذه الجوانب من الحياة العملية ، أو تلك العناصر من البيئة المعنوية !! هذا عجب من النسيان ، أو ماهو أشد منه .

ثم أليس من الدخل الغاش أيضاً أن تكون هذه الأشياء لم تؤثر فى الحياة الأسبانية العامة التى ورثها الاسلام وقام على آثارها ؟ وكيف

يقول مؤرخ: أن أســبانيا القرطاجنية، أو التي استعمر جوانبها القرطاجنيون لم تتأثر بهم؛ أو أن أسبانيا الولاية الرومانية لم تتأثر بالعصر الروماني: أو أن أسبانيا القوطية لم تجد أثر هذا العصر القوطي في حياتها عامة.. وأسبانيا التي تلونت بذلك كله، لم تجد أثر هذا كله في تاريخها؟ لعل القائل لا يعنيه أن ينكر ذلك، وإنما ينكر أن يكون هذا الأثر قد وصل إلى الحياة الاسلامية العقلية، التي خلفت على كل ما كان من هذا، وهي دخيلة أخرى مريضة؟ لأن ما وصل إلى أسـبانيا التي ورثها المسلمون لا يمكن أن ينفي وصوله إلى المسلمين، الذين خلفوا عليه، واتصلوا به، وتقلبوا فيه، وتمثلوه. وقد وصلت الآثار الأسبانية بجلاء إلى الحياة الاسلامية، على اختلاف ألوانها في هذه البلاد؛ ما في ذلك شك، ولا يلحقه إنكار.. إنه الناموس الحق.

ومن الدخل الذي يأباه العلم — وإن بدا في حساب الأديب غير المتثبت سهلا — ما في هذا النص من « أن تأخر النهضة العلمية والأدبية في الأندلس حتى القرن الرابع الهجري، هو الذي ساعد **على أن تندثر هذه المدنيات دون أن يبدو لها شأن في الحياة العقلية**» فانه لن يهون في رأى العلم، وحكم الواقع أن تقوم مدنيات واضحة الأثر، طويلة العهد في إقليم من الأقاليم، ثم تمحى آثارها أو تنعدم، حتى ما يبقى لها في خالف الأجيال أثر مهما يتباعد بها العهد أو يتراخ الزمن. وإن العلم الذي يقدر أن الانسـان يتقلب في مختلف الأدوار التي تطورت فيها الحياة الحيوانية، ويمثلها في تكونه الجنيني لما أبت تلك الأدوار من أثر في حياته مع ما بينه اليوم وبينها من ملايين السنين، وإن العلم الذي

يرتقب الوراثة البعيدة بعد الأجيال الطويلة ، ويرصد آثارها فى الفرد منحدرة إليه . من أجداد بينه وبينهم عقود السنين المتباعدة، والعهود المتمادية ؛ وإن العلم الذى لا يزال يرى اليوم بعد آلاف السنين آثار حياة الغابة فى إنسان المدينة ؛ وإن العلم الذى لم يؤمن بعد بالفناء ولم يسلم بالاندثار .. هذا العلم هو الذى يعرف نواميس الحياة ، ويجبر التاريخ حين يسجل ظواهر هذه النواميس ، على أن يكون علميا دقيقاً غير متهاون ومن هذا التاريخ المسجل لنواميس الحياة المنضبطة بالسير الدقيق ، تاريخ الآداب والفنون . فلا سبيل لهذا التاريخ إلى التهاون والتساهل ، وإلقاء القول على عواهنه ؛ والارتياح إلى أن مدنية كالمدنية الفينيقية ، أو أخرى كالمدنية الرومانية ؛ وعهداً كالعهد القوطى ، قد اندثر من الحياة الأسبانية ، ولم يصل أثره إلى الحياة العقلية الاسلامية فيها . لأن النهضة العلمية والأدبية بها قد تأخرت إلى القرن الرابع الهجرى !!

وفرق جلى بين ما لا يرى ، وما لا يكون . فمـــا لا يرى وما لا يعرف ، ليس هو ما لم يكن ولم يوجد .. فلو صحت العزمة على شىء من الدقة وتقدير المسئولية لشق على القائل هذا الاطمئنان إلى تقرير أن أثر تلك المدنيات لم يكن ولم يوجد .. على أننا لم نقم بشىء من الدرس الصحيح ، بل لم نقم بشىء من التهيىء الصحيح لدرس الحياة الاسلامية فى الأندلس ، عقلياً وعلمياً وأدبياً ، حتى نقول إننا نظرنا فلم نر ، وحاولنا فلم نجد .

وإذا جاوزنا تلك الملاحظات العامة لننظر فى أصل الفكرة التى

يردون بها الإقليمية ، وهى وحدة التراث الأدبى العربى فى الفنون والموضوعات والمعانى والتناول ، وجب أن نلفت أصحاب هذا القول إلى أن الحياة الأدبية الانسانية ، بأوسع آفاقها ، وأبعد ظواهر اختلافها ، فيها وراء ذلك نواح للتوافق والتشابه ، أو للاتحاد إن شئت . فقد نجد أصول التقسيم للفنون الشعرية أو النثرية ، فى آداب الأمم على اختلاف الألسن والألوان مما يمكن أن يلتقى فى أمور مشتركة وأصول معينة . . وقد نجد فن كذا من فنون الشعر ، أو النثر كالغزل أو الوصف أو الرثاء ، أو الرسالة أو الخطبة ، وأضراب ذلك . . نجدها فنونا مشتركة متماثلة فى الآداب كلها ، تقوم على أصول بذاتها يمكن أن ينتظمها درس واحد أو ينتفع فيها برأى باحث واحد ، فننظر فى كتاب ككتاب الخطابة أو الشعر لأرسطو مثلا لأنه ليس أغريقياً فقط ، بل هو مما يمكن أن يكون عالميا ، ثم إن وراء ذلك من أوجه التشابه ، أو التوافق فى الآداب العالمية ، على تباين الأمم نواحى أخرى ، فانك لتجد أصول الحس ، ومصادر المعنى من العاطفة الانسانية ، والمشاعر البشرية واحدة متشابهة متفقة فى الشرق مع مثلها فى الغرب : فالحب ، والحزن والبغض ، والغيرة ، والانتقام ، ألوان للحياة النفسية . أعراضها فى البشرية متماثلة ، وخصائصها فى الناس متوافقة ، فهل نجد الناظم أو الناثر أو القاص الذى يغنى عاطفة من هذه العواطف ، ويترجم عن حس من هذه الأحاسيس ، يتميز غناؤه ، ويتباين فنه ، ويختلف غرضه ، عن غيره ، حتى ما يلتقى فى ذلك شرقى وغربى ، ولا يتقارب فيه أبيض وأصفر وأسود ؟! أحسب أن ذلك شىء ليس صحيحا ولا مقبولا به . . وهو فى العلم نفسه

لا يلتزم ولا يدعى ، فلا أصل لالتزامه فى الآداب بالأولى ..

ومن أبين المثل لإيضاح الافتراق والتخالف مع وحدة الأصل ، هذه الاجناس البشرية ؛ يقيم العلم بينها الفواصل المفرقة ، ويقرر المميزات المغايرة بين جنس منها وآخر ، ثم لا ترى هذا التفريق — مهما يتسع القول فيه ويعمق — قد قضى على الوحدة الانسانية ، أو وحدة أصل هذه الاجناس فى رأى العلم وتقريره ؟ ! . فالأمر على غرار هذا فى الميدان الفنى ، بل هو فى الحقيقة أفسح مما فى العلم وأوسع ؛ فلقد تلتقى الآداب الانسانية فى الأقاليم المتعددة ، والعصور المختلفة على لسان المتفننين المختلفين فى ظواهر مشتركة ؛ فيتفق فيها أدب أمة آرية مع أدب أمة أخرى سامية ، ويتشابه فيها عصر جاهلى مع عصر حضرى حديث ونحو ذلك ، لأن لهذه الآداب على تنوعها وتغيرها ، بل على تخالفها وتبايتها وحدة عليا بعيدة ، تتلاقى عندها فروعها المختلفة ، وأنماطها المتعددة ، كما التقى الجنس البشرى فى وحدة الأصل ووحدة الجنس العليا . ثم اختلفت وراء ذلك فصائله وتمايزت فى كل شىء .. فليس يجب حين نقرر إقليمية الأدب ، أن تكون هذه الآداب فى أقاليمها قد تقطعت بينها الوشائج حتى ما تتشابه فنونها . فيبطل الغزل فى الشرق إذا تغزل من فى الغرب . ولا يقال الرثاء فى الغرب إذا قاله الشرقيون ؛ وحتى ما تتشابه موضوعاتها بحيث لا يعرض هؤلاء لما عرض له أولئك ، من موضوع رسالة أو خطبة أو مناجاة شاعر ، أو موادة مترسل ، لأن هذا مما لا يكون بين أدبين غير موحدين ... أو حتى ما تتشابه الصور البيانية والأساليب الأدائية بين الشرق والغرب اللذين تأثرا بمؤثرات متشابهة ؛ فتكون

للشرق استعارات وتشابيه لم يعرف الغرب مثلها ولا نوعها ، وحتى يستقيم هنا ما يستجاد هناك ، وبدون هذا لا يكون افتراق الشرق فى دأبه عن الغرب فى أدبه بل تكون لهما وحدة تامة جامعة ! !

***

وإنى لاستوفى البيان فأشرح لكم فكرة عن تقسيم المعانى الأدبية كنت قد أوضحتها فى بحث المعانى من البلاغة الفنية (١)

---

(١) هذا البيان منقول من محاضرات البلاغة الفنية التى كانت تلقى على طلبة الحقوق فى السنتين الأولى والثانية (١٩٢٩ — ١٩٣٠) قلت هناك ما نصه :

« درسنا للمعانى يدور على قسمين : هما معان جزئية أو مفردة أو صغرى — ومعان كلية أو مركبة أو كبرى . وأساس هذا التقسيم أن هناك عناصر مفردة يتكون منها جزء من عمل المتفنن ، وتلك هى المعانى الجزئية أو المفردة أو الصغرى — ثم هناك الأجزاء التى يتألف من مجموعها صورة كاملة لعمل المتفنن ، وهى المعانى الكلية أو المركبة أو الكبرى . ولإيضاح هذا نقول : إن هناك ألوانا وخطوطا يأتلف منها عضو من أعضاء الصورة الفنية ، ثم هناك الأعضاء يلتئم من مجموعها صورة تامة لشىء . . فالألوان والخطوط الأولى هى المعانى الجزئية أو المفردة أو الصغرى . . والأعضاء والأقسام الرئيسية هى المعانى الكلية ، أو الكبرى ، أو المركبة . مثال ذلك أنك تريد فى دفاع لك أن تصف هول جريمة ، وتصور فظاعتها ، وترسم لذلك صورة بشعة تستثير نفس القضاة على المجرم ، فالأسلحة المستعملة فى تلك الجريمة وشناعتها جزء من هذه الصورة ؛ وقسوة مرتكب الجريمة ؛ وتعذيبه لفريسته جانب آخر ؛ وشباب المجنى عليه وفتوته ، وازدهار أمله فى الحياة ناحية كذلك ؛ وكفالة هذا المجنى عليه أطفالا صغارا وكباراً وعجزة يعولهم ، وقد خلفهم وراءه مشردين جانب أيضا . . فتلك كلها أجزاء ونواح تبتغى أن تكمل منها صورة رهيبة لجريمة المجرم وأثرها ، وهى معان كبرى ، أو معان كلية ، أو مركبة . وفى اخراجك لكل واحدة منها لابد لك من معانى مفردة ، فى وصفك السلاح أو فى وصف القسوة

فقسمتها إلى معانى كبرى ومعانى صغرى .

قسمت المعانى الأدبية إلى كبرى وصغرى ، فالأولى هى مواد الفن

=أو فى وصفك المجنى عليه ، وما إلى ذلك . وفى كل واحدة منها تعمد إلى اختيار مفردات بعينها ، أو تراكيب بذاتها ؛ وتتجوز أو تستعير أو تكنى أو تشبه أو تلتمس من وسائل الأناقة فى قولك ، ما يجعل سامعك يشعر معك بما تريده من ذكر هذا السلاح وغيره من الأجزاء التى كونت منها صورتك ، فتلك هى المعانى الصغرى ، أو الجزئية ، أو المفردة ، يكتمل من كل منها جانب من عمل المتفنن إذا ما تضامّ مع غيره كوّن الصورة التامة . وكذلك يفعل المتفنن إذا ما رثى ، أو مدح ، أو قص وروى ، أو خطب ودعا .. الخ .. فى كل واحد من هذه الأنواع مناح يجول فيها ، وأغراض يجليها هى معانيه الكلية أو .. أو .. الخ . وبيان كل ناحية وغرض بما يتخيره ويؤثره صاحب القلم فى استعمال المفردات والتراكيب . . . فالمعانى الجزئية أو المفردة ، تكون فى مفرد أو جملة ؛ وأما المعانى الكلية والكبرى فتكون فى فقرة أو فقر أى فى أكثر من جملة .

وفى المعانى المفردة تتجلى الصورة الواضحة ، من الفرق بين الآداب المختلفة للأمم المتعددة ، لانها أصدق ما تكون تأثراً بالبيئة الطبعية والمعنوية ، وأشد ما تكون ارتباطاً بمدنية الامم وحياتها الاجتماعية . ومن هنا نرى من التشابيه والاستعارات ، والكنايات فى أدب أمة ما يهش له بنوها ويطربون ؛ على حين أن هذا بعينه ربما لا ينال من نفوس آخرين منالاً ، ولا يتجلى لهم به معنى . ومن أمثلة ذلك أنك ترى الايطاليين يشبهون فيقولون « طيبة كالخبز » « وحيدة كالاسبراجو » . « وهو يرتقب الفرصة ارتقاب الخنزير للقسطل » . ويشبه الانجليز فيقولون « كسمكة فى الماء » وربما لا يسيغ الذوق العربى ذلك كله أو لا يكون له أثر فى إيضاح غرض . على حين تسمع مثلا من قول العرب « يقعى جلوس البدوى المصطلى » « وكأنه علم فى رأسه نار » و « كجلمود صخر حطه السيل من عل » « وآثار السيوف كمشافر الإبل القرحى » .. وليس شىء من ذلك يدور بخلد غربى لم ير الإبل فى حياته ، ولا اصطلى مقعيا ، ولا أوقد نار القرى .

القولى ، وأدوات العمل الأدنى من حب متغزل ناسب ، أو عتاب متلطف ، أو استعطاف متشوق ، أو هجاء كاره ، أو ما إلى ذلك من معان أو إن شئت — من عواطف وأحاسيس بشرية — تعطيك مجال العمل الفنى فى القول أو غير القول من الفنون .

وأما المعانى الصغرى فهى الصور الجزئية فى هذا الأصل الأكبر كأن يكون تغزل المتغزل ، أو استعطاف المستعطف ، أو رثاء الراثى بقول كذا دون كذا ، أو بفكرة كذا دون كذا ، أو بصورة أداء دون صورة أخرى ، أو بلون تعبير دون غيره ؛ وتلك الأخيرة هى التى نسميها المعانى الصغرى .

وفى القسم الأول وهو المعانى الكبرى ، لايجب أن يختلف أدب جنس عن أدب جنس ، ولا أدب أمة عن أدب أمة ، ولا أدب عصر عن أدب آخر شديد المباعدة له . فقد يكون ذلك كله إنسانياً تجده

= ويستعير الغربيون فيقولون : « يتبوأ مكانه تحت الشمس » « وهو يتكلم فى سن الشوكة » أى بدقة وأناقة ، « وهو يغسل رأس الحمار » أى يضع الجميل فى غير موضعه ، حين تقول العرب : « يجر النار إلى قرصه » « ويضع الهناء مواضع النقب » « وتثلج له الصدور » « وهذا تشد له الرحال وتضرب له آباط الإبل » .

ولو قدرت الأساطير التى يخلدها أدب كل أمة ، واستمداد هذه الاساطير صورها من صميم البيئة التى خلدتها ، واعتماد كثير من الاقتباس والاستشهاد والتمثيل والتشبيه على هذه الأساطير . لبدا لك جانب واضح للتخالف .

وإلى جانب هذا ، وحى البيئة إلى نفوس أصحابها ، بعواطف ومشاعر فى قوة معينه ، أو لها قدسية خاصة ، أو يؤيدها إصرار عنيد . على حين تجعل هذه البيئة مقدس الآخرين مضحكة هؤلاء ، وقربهم بعيداً على غيرهم ؛ وهكذا .

البشرية جمعاء، وتحسه الناس كلهم ؛ وهو موضوع الأدب الخالد الذى تستطيع الألسن المختلفة أن تجرى به ، والألوان المختلفة أن تتناشى به وتهش له ... وحظ الأدب من الخلود مرهون باختيار المتفنن لهذه الكبريات من المعانى ، ينتقى منها موضوع عمله الفنى . ثم يصور فيه شعوراً إنسانيا عاماً مشتركا باقياً . وبعد هذا الاتفاق الأساسى فى المعانى الكبرى تختلف الأمة عن الأمة ، والعصر عن العصر ، والمتفنن عن المتفنن ، فكلهم يحب ، ولكن هذا عذرى الحب ، وذاك طائر القلب ، وهذا موحد متفلسف يعرف معنى الحب فى نفسه ، وهذا متنقل أو متكثر ، يعرف الحب فى نفس محبوبه ، إلى فروق من ذلك قد تتميز بها الأمم ، والأفراد ، والعصور ، فتتميز الفنون ، وتكون موضوعات العمل الفنية المختارة متأثرة فى صورتها العامة بهذه الفروق .

وأما مادعوناه المعانى الصغرى ، وهى الخواطر الجزئية التى تؤلف الأقسام الرئيسية للفنون القولية ، فهذه أقبل بطبيعتها للاختلاف والتغاير ، فطريقة هذا فى ترجمته عن حبه ، وأسلوبه فى إبلاغ عواطفه ، وتجليته للصورة النفسية التى يمثل بها هذه العاطفة بتلوينه لها وعرضه أياها على قارئه أو سامعه ،كل أولئك قابل بطبعه للتفاوت والاختلاف : يتفاوت فى أمة عن أمة ، وفى جيل عن جيل ، وفى شخص عن آخر ، بل يتفاوت فى الشخص الواحد لزمنين مختلفين من حياته ...

وهكذا ليس يجب إذا ادعيت الإقليمية أن يمدح المصريون بالبخل إذا مدح العرب بالكرم ، ولكن يرجى أن يكون عرض المصريين لصور كرم الممدوح مخالفاً لعرض العرب هذه الصور فى ممدوحهم .

وهنا تعطى البيئة أثرها ، وتبعث وحيها . فإن كان العربى سحابا وغيثا يهطل ، فالمصرى فيض ونهر يروى وينبت ، ويغل ويغنى ... وليس يجب إذا تغزل المشرقى ، العراقى أو الشامى ألا يتغزل المصرى ولا المغربى ! ماقال هذا أحد .. ولكنما يجب أن تكون الصور الأدبية لهذا المعنى الاول الكبير مختلفة عند العراقى أو الشامى عنها عند المصرى . فإذا يمثل أحدهما القمر والبدر والنجم مثلا ، تمثل الآخر الروض والزهر والعطر والشذى ، وهكذا ؛ بل يمكن أن يختلف الأدبان وراء ذلك فى حركة القلب وهدف النفس ومطمح الروح فى الحب ، لاختلاف المؤثرات المعنوية فى البيئتين الاجتماعيتين مثلا . وقد يختلف الأدبان أيضا فيكثر فى أحدهما فن كذا دون كذا ، أو يخلق فى أحدهما فن كذا مبكراً ، ويتأخر ظهور مثله فى الأدب الآخر وما الى ذلك ...

***

وما نقرر هذا كله مما أسلفنا بيانه إلا وفاء للبحث ، ونحن نعرف فى الوقت نفسه ، أن فى قالة أصحاب هذه الوحدة أنفسهم ، شواهد الاختلاف الجلى بين العراق وغيره من المشرق ، والأندلس وأفقه من المغرب ، يوردونها هم ساهين عن تقديرها وترتيب أثرها عليها ، أو مهونين — فى غير حق — من خطرها ، زاعمين أنها ليست بذاك .. فهم يذكرون من هذه الفروق التى لم يعنهم أن يرتبوا آثارها عليها ، أنه لم يكن فى الغرب طوائف دينية من مجوس وزنادقة كما كان فى المشرق ، وذلك شىء له أثره لو نظروا اليه النظر الدقيق البعيد الواجب فى مثل هذا البحث ؛ اذ يكشف لهم أن بين الحياة الدينية فى الأفقين فروقاً ليست باليسيرة الشأن .

ثم أن بين البيئتين فى التشريع من الفروق كذلك ما له حسابه. فالحركة الفقهية فى الأندلس، مخالفة فى سيرها واتجاهها لمثلها فى الشرق، مهما يكن المذهب المالكى مشتركا بينهما. فلقد حيت الظاهرية فى هذا الإقليم حياة خاصة، لها فى تاريخ التفكير الاسلامى أثر ليس بالقليل ولا الصغير، بل لها فى الحياة الدينية المسيحية فى الغرب ما يمكن أن يقدر من تأثير(١). وهذه «الظاهرية» فى حقيقتها ليست مدرسة فقهية فقط، بل هى مدرسة عقلية دينية تخالف أصولها فى الفهم والنقد والتقرير، غيرها من المدارس الاسلامية العقلية والدينية. ولعلها لا تقل أثراً فى الحياة الإسلامية من حيث اتصالها بالشرق أو بأوربا، عما تجب العناية به من آثار المعتزلة ومدرستهم. وتلك نواح لا يتسع المجال لشىء من القول فيها هنا، ولكننا نضع يد القوم على ما أغفلوا من فروق؛ والأمر فى الحياة الدينية الاعتقادية ليس أقل أهمية، ولا أقل حاجة إلى الوقفة الخاصة والعناية المفردة به، من الأهمية التى للناحية الفقهية. وقد أكد القوم أنفسهم هذا الفرق فى دراستهم؛ وإذا كان الاعتقاد والتقنين، فقد تأثرت لا محالة الحياة الفنية تأثراً مفرقاً مميزاً لا يمكن إنكاره.

ثم هم أنفسهم يذكرون كذلك أنه لم تقم بالأندلس حركة ترجمة كالتى قامت بالمشرق. ولكن هذا لا يقف أثره عند ما قرروه فى

---

(١) وقد أشرت إلى هذا الأثر فى البحث عن صلة الاسلام بإصلاح المسيحية الذى قدم إلى مؤتمر تاريخ الاديان الدولى ببروكسل سنة ١٩٣٥. انظر ص ٤٨ — ٤٩، ٦٧ — ٧٠

سذاجة ، حين يقولون : إن الأندلس كان يقرأ الثقافات الأجنبية فيما يأتيه من الشرق ، إذ لو كان الأمر ينتهى عند الاعتراف بفضل المشرق فى تغذية هذا المغرب لما كان ذلك موضعاً للمشاحة والخلاف ، ولكن المسألة أعمق من هذا وأبعد غوراً ، فإن تلك الثقافة الأجنبية التى ترجمت قد تقدم بها الزمن فى المشرق حين تأخر فى المغرب ، وهذه واحدة .. ثم عرفها المشرق محتاجة إلى التنقيح ، وفيها مواضع للنقد وآثار للاختلاط والاضطراب ، من عمل التراجمة الأولين من سريان ونحوهم مما أحوج إلى تحرير ثان ، وترجمة ثانية أحياناً .. لكنها لم تجىء المغرب إلا بعد ذلك ، وفى غير هذه الحال .. وتلك ثانية .

ثم كان لاختلاط هذه الثقافة بالثقافة العربية ، وما جرى بينهما من تجاذب وتدافع أثره ، الذى دخل على الحياة الدينية والحياة الفنية بأشياء من الاهتزاز والاضطراب ، قبلما تولاها القوم بالتوفيق أو بالتخفيف ، أو بالتفسير أو بالرد ، أوما إلى ذلك مما تقتضيه الهزة الاجتماعية الناجمة دائماً عن مثل هذه التغييرات .. ولكنها جاءت المغرب بعد ما انتهت هذه التجربة ، أو بعد ما ثبتت على حال ما آلت إليها ، فلم يتعرض المغرب لما تعرض له المشرق من هذه الهزة وأثرها .. وتلك أيضا ثالثة .

ومن هذا وغيره كانت حياة الفلسفة فى الأندلس — مهما تكن قد اتصلت أو تأثرت بحياتها فى المشرق — لا بد أن تختلف بها الطريق وتفترق الخطوات ، وهو ما كان فعلا شأن الفلسفة فى هذا الأفق .. وتلك رابعة جعلت اتصال الأدب بالفلسفة فى المغرب لا يؤمن فيه

القول بالمشابهة لما كان فى المشرق . وهذا هو ما يمكن الاطمئنان إلى تقريره مؤقتاً .

***

ولقد جاءكم من حديث القوم عن الحياة الأدبية فى المشرق والمغرب أن المغرب كان يصوغ على نماذج المشرق ، لكن كانت المذاهب الفنية تنقل إلى الأندلس نقلا مضطرباً ، فلم يكن التقليد دقيقاً ، إذ كانوا يلفقون بين طرق ومذاهب فنية مختلفة لغير شاعر واحد ، وهذا نفسه من قولهم فرق واضح ؛ بل شديد الوضوح . فالمذهب الأدبى فى المغرب حين قلد المذاهب المشرقية — إن صح قولهم فى وصف التقليد — كان مذهبا انتخابياً ، جمع نواحى من المذاهب المختلفة ، أو كان مذهباً اختلاطياً اضطرب بين المذاهب المختلفة حين كان الأمر فى المشرق ليس على شىء من هذا الانتخاب أو الاختلاط الذى فى المغرب .

وهكذا أراد القائلون أن يذهب الشرق بالفضل كله ، والامداد كله ، وأن ينكروا على الأندلس أن يكون قد أحدث مذاهب جديدة فى صناعة الشعر ، وأسرفوا فى ذلك وأطنبوا فى بيانه ، فقرروا فى هذا البيان أن حال الأندلس من هذه الناحية ، لم تجر على ما جرت عليه الحال فى المشرق ، بل تغايرت وتخالفت . وإن يكن هذا التغاير والتخالف اضطرابا واختلاطا .

وجلى أن سبق المشرق وابتكاره شىء غير ما نحن فيه ؛ فإنما يعنينا تغاير ما بين المشرق والمغرب ؛ وهذا السبق نفسه ، وهذا الابتكار مفرق بينهما ومغاير ، له تأثيره ، وله بالبيئة صلته ... ولو لوحظ مع هذا أن الأخذ

كان تخليطاً وجمعاً ، ولم يكن محاكاة صحيحة ولا دقيقة ، فان هذا الاختلاف أيضا بين الأخذ وبين التقليد والمحاكاة اختلاف له أثره ، وهو حقيق بالوقوف عنده .. ولا محل لاختلاط الأمر بين الذهاب بالفضل والسبق ، وبين الوحدة وعدم أثر الاقليم والبيئة ، فان قولهم فى تقرير هذا الفضل يقرر هو بنفسه الاختلاف والتغاير الذى يعنينا النظر اليه .

* * *

وآخر من قولهم قد اعترفوا فيه بالفرق لكنهم هونوا من شأنه فى غير سبب إلا أنهم أرادوا ذلك ، فلقد سمعتهم يذكرون ما أحدث الأندلسيون من التغيير فى الشعر العربى بموشحاتهم وما إليها من أزجال ونحو ذلك ، فيهونون من شأنه بأنه لم يحدث ثورة فى الأوضاع القديمة فى الشعر العربى إلا من حيث الأوزان والقوافى ... وهو توهين يخلقه الغرض ، وإن كان لا يسوغ فى تقدير الفن .. فهذه الأوزان المستحدثة كما تعرف لم يحدثها إلا الضيق بالأوزان القديمة ، والشغف بطراز من الحرية الفنية والسعة الموسيقية التى لا تواتى عليها الأوزان القديمة ولا تسعف بها أبحرها ، وما يكون هذا إلا أثراً لتطلع فنى موسيقى خليق بأن يعد شيئاً خاصاً بأهله له قيمته ودلالته ، وما هذا الوزن الشعرى إلا إدراك موسيقى يتبع شخصية الشاعر ، ويساير جو الموضوع ، ويتغير بتغير ذلك كله ، فيلون الفن القولى ، ويشف عن صنوف من الاحساس تنم عن الأشخاص ، وتوائم موضوعات القول ، فليس كل بحر يصلح لكل غرض . ولا كل مزاج يستسيغ كل وزن أو يحسن بالشاعرية فى التفاعيل كلها على السواء ، وما يستطيع هؤلاء القائلون — مهما يكابروا — أن ينسوا أن رواج أبحر الشعر هذه قد تفاوت بتفاوت

العصور ، وتفاوت باختيار الشعراء ، وتغير بتغير الموضوعات ، وتأثر ذلك كله بالحياة الموسيقية والغنائية ، رقياً وانحطاطاً ، وإذا لم يكن مجال القول هنا ذا سعة فانا نكتفى بأن نقول : إن هذا الوزن ليس من السطحية بحيث تسقط دلالته ، وتهمل قيمته ، فلا يعد فى شىء من الفروق بين فن وفن ، ولا يحتسب التغيير فيه والابتداع — على نحو ما كان بالأندلس — ذا أثر فى الدلالة على فرق ما بين أصحاب هذا الابتداع وبين غيرهم !! ... وليس إهمال هذا الفرق وتيسير شأنه إلا ضرباً من عدم الدقة التى تؤذى الحياة الفنية . والتى نعتبر نحن القول بالاقليمية خروجاً عليها أو تلافياً لنقصها وعلاجاً . .

***

وإن تعجب فعجب أنهم ، وهم ناشئة المذهب السياسى فى تاريخ الأدب ، قد لقنوا ربط حياة الأدب بحياة السياسة يديرون عليها عصوره ويتبعونها رقيه وانحطاطه ، قد نسوا مع ذلك أو أنسوا صلة السياسة بالأدب فى هذه الناحية . فلم يقدروا فرق ما بين هذا المشرق وذاك المغرب فى السياسة ، فقد اختلفت المنعة فى الجانبين ، وتغيرت أيما تغير عوامل التأثير السياسى فى البيئتين ، وافترقت افتراقا — ليس باليسير — المؤثرات الحيوية على السياسة فى الأفقين ، فلم يكن فى الأندلس ذلك النزاع بين الأسر العربية فى الحكم ، ولعله لم تكن تحتكم بذلك تيارات دينية أو روحية فى سير الحياة السياسية ، فلا شيعة غلاة أو معتدلون ، ولا طالبيون ولا علويون ، ولا زنادقة ولا متصوفة ، يعملون فى سر أو علن لشىء مما يعملون لمثله فى المشرق ، ويهزون به أصول الحياة

الاجتماعية والأوضاع السياسية هزات عنيفة .. هذا إلى ما للاندلس من علاقة قريبة بمن صاقبهم من البشكنس وفلول الاسبان ، ومن الى هؤلاء من الفرنجة المطبقين جميعا على هذه البلاد ، المناصبين أهلها العداء ، الجادين فى سبيل إجلائهم وغلبتهم .. وكل ذلك وأمثاله من فروق كثيرة بين السياستين : المشرقية والمغربية . والحكومتين : الأندلسية والشرقية . والبناء السياسى للجماعتين ؛ كل ذلك مما يتصل من قرب أو بعد بالحياة الأدبية ، ففى الشرق أحزاب لها شعراؤها ؛ وأسر لها مقاولها ؛ وشيع لها دعاتها . وللعقائد والمنافع ، والدعاوة ، والاستقلال ثم للعصبية حيناً ، ولغير ذلك مما يشبهه تأثيره العنيف فى حياة فن القول ، وتوجيهه ، ودفع المتفننين فى الشرق إلى أغراض ومعان كبرى ، ليس لها شبه ولا مثل فى هذا الغرب المتميز .. فما هذه الدعوى المجازفة بوحدة الفن فيهما وحدة تامة !!!

— ٥ —

ومما يلقاك به بعض من يتصل بالأدب أو من لاصلة له بأدب أيضا ، منكرين فكرة المصرية ، أن يقولوا : أين هذا الأدب المصرى فانا لانجده ولا نعرفه ؟؟ يعنون بذلك أن ما تناقل الناس من أدب سائر ، وما رددوا من أسماء مشتهرة ليس فيه مصرى ، فقد عرفوا البحترى وأبا تمام والمتنبى والمعرى ومن إليهم ، وحفظوا من الشعر كذا ، وتمثلوا بكذا ونحوه من النثر ، فما كان بين هؤلاء أسماء مصرية ، ولا كان فى هذا لذى دار بينهم ما هو مصرى .

***

وتلك فكرة نرى فيها جوراً على المنهج ، ما نستطيع أن نلقاه بمثله ، ذلك ان قضيتنا عامة ، إنما تقوم على أثر البيئة فى الفنون ومنها الأدب . وهذه المصرية بيئة كملت لها المزايا المتفردة ، وتهيأ لها التميز الواضح فوجب أن تترك أثرها فيمن فيها من الأحياء ، أشياء أو أشخاصاً . وعلى الدارس أن ينطلق باحثاً عن هذا الاثر ، واثقاً أنه لن يخلفه ... تلك مقدمات وقضايا ، ما أحسب فيها ما هو موضع لمشاحة أو إنكار ، وكذلك تكون النتيجة لازمة لها ، وهى أن لهذه البيئة أثراً ما بعينه ، فاللغة العربية وأدبها مما عاش فى هذه البيئة ، ووجب أن يكون قد تأثر بها ؛ أما أن يكون هذا التأثر كذا وكذا لا كيت وكيت ، فشىء لم ندعه ، ولم نتعجل فيه قولا ...

وعلى هذا ، إن صح فى رأى هؤلاء أن تكون هذه العربية قد جفت فى مصر ، وما نمت ، وان يكون العرب الذين نزلوا مصر قد يكئوا

لا يقولون شعراً ولا نثراً ، وكذلك كان المصريون من أهل هذه البلاد لم يشعروا بهذا التحول الذى تم فى حياتهم حين اتخذوا العربية لغة لهم بعد ما اتخذوا — أو اتخذ أكثرهم — الاسلام ديناً ، فلتكن تلك هى النتيجة التى يصل إليها بحث الباحث ويسجلها راضياً مغتبطاً ، لأنه لا يبحث عن شىء يريده أو يفضله ، ولكنما يبحث عن شىء يصححه ويصدقه .

وتكون هذه البيئة المصرية قد استعصت على العربية لم تنفعل بها ، أوقد عرض لها من الموانع والعوائق ماحال دون تأثرها بهذه العربية ، أو ماشأن الله أن قد كان من الأسباب والظواهر ، فتلك هى النتائج التى يدونها دارس الأدب المصرى فى الاسلام .

***

واذن فلتنظر هذه الأمة المصرية التى تشق طريقها فى الحياة ، وتبنى نفسها ، فنجد أن هذه العربية لغة قد ماتت بها الحياة الفنية فى مصر ، وأجدب الوادى أدبياً ، وتلك آفة لا تصبر على مثلها أمة تشعر بحقها فى الحياة ، وترنو لأملها فى المستقبل . وإذ ذاك فان ينفع القائلين بالعروبة أو الشرقية ، أن تكون مصر هذه عربية لا مصرية ، لأنها لم تعرف من آثار العربية الأدبية شيئاً خلال بضعة عشر قرناً من الزمن . ولن ينفعهم أن تكون مصر هذه شرقية لا مصرية ، لأنها لم تجد نفسها ، ولم تخلف أثراً لحياة لا يمكن أن تفقدها جماعة من الجماعات ؛ وهى تعد فى الأحياء ؟ وهى الحياة الفنية ؛ وبخاصة الحياة الفنية القولية .

على أنه مهما تكن هذه النتائج خطيرة أو يسيرة ، فانا لن نستغنى

عن دراسة الحياة الفنية القولية فى مصر خلال هذا العصر الإسلامى المتطاول ، لنخرج من هذا الدرس بصحة النتائج التى يريدها أصحاب هذا القول ، ونسجل أن مصر لم تعرف فناً مصرياً عربياً يمكن أن تكون قد شعرت به ، أو تطلعت له ، أوحاولته فما وجدته ، وإنما كانت تردد فى ذلك — إن رددت — آثاراً أخرى صلحت لغيرها كما صلحت لها على السواء ، ودفعت حاجة غيرها الفنية كما دفعت حاجتها تماما . وإذا كانت مصر هذه بين الأقاليم الأخرى من أقاليم الأمبراطورية الإسلامية أو العربية ، هى الإقليم الذى لم ينشئ ، ولم يتفنن ، ولم يخلف ثروة من الفن القولى ، وإنما كان عالة على الشام طوراً ، وعلى العراق تارة ، وعلى غيرهما أحيانا ، وقد كفاه أولئك حاجته الفنية حتى لم ينهض لها ، ولم ينشط لعمل فيها ، فتلك فى ذاتها — إن صحت — ظاهرة تستحق الدرس ، ويجب الوقوف عندها لتتبين هذه الجماعة أمرها وتعرف نفسها ... وعلى هذا يدرس « اللا أدب المصرى » بهذه القوة والرغبة التى يدرس بها « الأدب المصرى » لنشخص تلك العلة ، ونستقر على رأى بين صحيح فى صلة هذه العربية بمصر ، وتلقى مصر لهذه اللغة ، وكيف كان الأمر بينهما خصباً وجدباً ، وإثماراً وعقما ، وتلك هى دراسة الأدب المصرى التى ندعو إليها ، بل التى تصبح — إذا صح هذا من كلام القائلين — أشد ضرورة لحياة مصر وسلامتها ، وفهم كيانها ، وتبين مزاجها .

***

وفى الذى سلف بيان لما سميناه « جوراً على المنهج » إذ يفرض

المعترض أن للدارس رأياً خاصاً بعينـــه ، ودعوى مثبتة يتصدى لتأييدها ، فينـكرها عليه حين ينفى أمامه أن يكون هناك أدب مصرى قد وجد . وهذا الغرض أو التقرير خاطىء منهجيا لأن الدارس إنما يبتغى الحقيقة كما تـكون ، وكما ينتهى إليها ، وكما تجىء ، لا كما يريدها أو يتمناها ، أو يتعصب لها .

وشىء آخر من الجور على المنهج فى هذا الاعتراض ، هو سبق الدراسة بالنتيجة ، والتقدم بالنهاية على البداءة . فإن وجود أدب مصرى أو عدم وجود ذلك الأدب ، إنما يثبته درس متصد لذلك يجمع الآثار المصرية الأدبية ، أو قل يعرف هذه الآثار المصرية ومواطنها ، ويتصل بها ، فيعرف أن فيها مايكافىء هذا المشهور الشائع من الآداب ، التى هيىء لها أن تسير وتروج ، أو ليس فيها مايكافىء هذا المشتهر ؟ وذلك هو مالم يقم به — ولا بشىء منه — أصحاب هذا الكلام .

***

ولقد كان يظن ، والحال على ماوصفنا ، أن نلقى هؤلاء القائلين ، بآثار لمصر والمصرية فى هذه الآداب الرائجة ، وأن نضرب لهم مثلا ، بأنها كانت نجعة الرائدين حيناً ، ومباءة الناشئين حيناً ، فشاركت بذلك فى توجيه هذا الأدب المشتهر أو تـكوينه ، وكان لها نصيبها — الذى تبين أو اختفى — فيمن وفد عليها من هؤلاء ، كـكثير وجميل وأبى نواس ، أو اتصل بها كأبى تمام والمتنبى ومن إليهما ، أو أن نشير إلى مدارس فى الأدب العربى باصطلاحهم ، كانت مصر منضجتها ، وصاحبة الأثر

الواضح فيها كالمدرسة الرمزية ومثالها البارز في ابن الفارض، أو نلتفت إلى أثر مصر والمصرية في الأدب بمعنى أوسع وأعم، فنشير إلى مدارس مصرية، وأعمال مصرية في العلوم الأدبية ومؤلفاتها؛ وما إلى هذا ..

كان يظن أن نعني بشيء من ذلك ونتجه له، ولكن هذا هو ما عددناه جوراً آخر على المنهج، ما نستطيع أن نلقى به جور الذين ننقدهم .. لأننا نكره أن نشير إلى شيء من ذلك، عن فطير من الرأى، أو ظاهر من الأمر، لم يهد إليه درس مستقل ولا بحث مستقص، إذ لم توجه بعد عناية لدرس الأدب المصرى، ولا منح ما هو خليق به من الرعاية. فالسبق إلى بعض النتائج قبل وجود ذلك كله جور منهجي .. ما في ذلك شك.

وشيء آخر نفسي نعده جوراً آخر، هو أن نكون بحيث نناضل عن فخار، ونذود عن عصبية لإقليم؛ أو ندعى فضلا لوطن، فذلك مما لا ينبغي أن يكون له في حساب العلم، ودستور البحث، أثر ولا شبه أثر، مهما تكن الأمنية المفاخرة قوية، والرغبة الوطنية متملكة، ففي ميدان المفاخر المصرية الأخرى غير الآداب متسع، قد أيده الدرس، وأثبته البحث، فيتهيأ به الشرف الفاخر، دون جور على حقيقة.

وعندى أنه لا ينتقص مصر في شيء ما، أن تكون قد قعدت عن أن تحدث فناً أدبياً عربياً في عصرها الإسلامي، لأنها غنية بفنون أخرى وفنون في غير هذا العصر. ولكن ذلك كله ينبغي أن يؤخر أخيراً إلى ما بعد الفراغ من الدرس الكامل، والانتهاء إلى شيء ننفيه أو نثبته، عن علم، لا عن هوى، ولا عن نفور من جديد لم يؤلف، هو تسمية «أدب مصرى»، والتفرغ الجاد لدرسه. وفاء بواجب علمي أول شيء؛ ثم اجتماعي قومي بعد ذلك.

— ٦ —

ويتصل بهذا الذى نحن فيه ، من بحث فكرة الإقليمية ، إيضاح تتفاوت فيه كلمة القائلين بها ، حين يبينون مرادهم بالمصرية عند ما ينشطون لشىء من درسها ، فتسمع مثلا منهم من يقول :

« يجب أن نلفت النظر . . . إلى أن مصر التى نعنيها ليست هى مصر بحدودها الجغرافية المعروفة ، بل مصر بحدودها الفنية التى تجاوزت البحر الأحمر إلى شواطىء الفرات ، أو مصر التى كانت تضم فيما تضم إليها البلاد العربية عامة ، والقطر السورى منها بنوع خاص »

« على أن الدين الإسلامى نفسه ، لم يعرف الوطنية ، ولا العصبية ولا عرف التفرقة بين الأقطار التى تضمها الراية الإسلامية ؛ وإذا كانت الحكومات المصرية فى العصور الوسطى قائمة على هذا الدين ، فمن العبث أن نحاول فهم التاريخ الوسيط فى مصر وغيرها على ضوء الوطنية ونحوها من الأفكار . ومن التعسف أن نتتبع الدم المصرى وحده ، أو الشامى وحده ، فى كل قطر من هذه الأقطار ، ومن الخير لنا وللتاريخ أن ننظر إلى المصريين وإلى غيرهم من الشعوب الإسلامية ، نظرة تتفق وروح العصر التى يراد أن يؤرخ لها ، وليكن عذرنا فى ذلك أن المصريين كغيرهم من سائر المسلمين ، لم ينشأ فى نفوسهم ميل إلى التعصب الوطنى المعروف ، أو ليكن عذرنا فى ذلك أننا نستعرض »

« تراجم الرجال فى تلك العصور ، فنرى فلاناً المصرى ، المقدسى اللخمى ! ونرى فلاناً المغربى الاسكندرى الشافعى ، وقل أن نعثر فى هذه

التراجم على رجل يقال عنه فقط ، إنه المصرى ، أو على آخر يوصف فقط بأنه الشامى أو المقدسى وهكذا » .

***

وفى الحق أنه بعد الإغضاء عن الهنات اليسيرة فى هذا البيان للمصرية ، يظل هذا البيان يحمل من آثار الضعف ما يؤذى فكرة الإقليمية بل يفسدها . . ذلك أنه إذا كنا لا نعنى بالمصرية ، مصر فى حدودها الجغرافية المعروفة ، وإذا كان من التعسف أن نتتبع الدم المصرى وحده ، فماذا بقى من هذه الأقليمية ، بعد ذهاب الجنس وفقدان أثر البيئة ؟ ! ! وأى شىء هذا الذى نطمئن له ، ونطمئن الناس معنا ، من أن الإقليمية : **إنما هى فضيه العلم فى تاريخ الأدب** ؟ ! !

***

لقد أصاب هذا البيان ضعف مهون . جاءه من محاولة تقدير واقع تاريخى هو : امتداد الإمبراطورية المصرية فى عصور مجدها ، إلى ما وراء حدودها الاقليمية ، وامتداد نفوذها السياسى والاجتماعى ، وما يتبعه من النفوذ العلمى أو الفنى إلى ما وراء هذه الحدود شرقاً وغرباً . . وهو واقع تاريخى يستحق التقدير ؛ ولكن ما هكذا يكون تقديره . . .

وإلى هذا الواقع أشرت فى وضوح ، عند الحديث عن : « مصر فى تاريخ البلاغة » وكان مما قلته فيه ، (١) ما خلاصته : إن مصر فى أثناء القرون ، الخامس والسادس وشطر من السابع . كانت

(١) ص ١٢ — ١٣ من هذا البحث .

صاحبة الخلافة الفاطمية ، ثم السلطنة الأيوبية ، قد انبسط نفوذها شرقاً وغرباً ، وكسف ضوءها خلافة بغـــداد التى كانت تتحلل وتنحدر ، وترى مصر تقف أخيراً وحدها فى وجه الصليبيين ، والغرب كله ، لتذود عن الإسلام والشرق كله ، وأنها كانت مع هذا المركز السياسى والاجتماعى الخطير ، مركز حياة علمية وفنية فى الشرق الأدنى مزهرة ، خلال تلك المدة . ونجد مصر تحكم ما حولها من الاقاليم شرقاً إلى العراق ، وغرباً إلى نهاية المغرب ، فنجد من كل ذلك ، أن الطابع المصرى فى مختلف المرافق ، يظهر جلياً فى تلك الاقاليم شرقاً وغرباً ؛ ونرى رجال تلك البلاد يعملون لخلفاء مصر وسلاطينها . فى الاعمال السياسية ، والأدبية ، والحربية ، والعلمية ، والإدارية ، ومن أجل ذلك يكون من الطبيعى أن يتثقفوا ثقافة مصرية الروح ، وهذا مايسعنا معه — دون تزيد ولاسرف — أن نعد بعض رجال هذا العهد ، الشامى الاصل ، أو المغربى المحتد ، رجالا مصريين فناً ، ومصريين فكراً ، ومصريين ثقافة ، على أنى لن ألجأ إلى ذلك اعتباطا وتحكما ، بل سأعد من هؤلاء من لزموا الوادى ، وآثروا الانتساب إليه ، ولقبوا أنفسهم فعلا بالمصريين ، وعملوا فى بلاد مصر ذاتها .

وعدت إلى هذه الفكرة مكملا لتطبيقها — ص ١٥ — فقلت : « ولو قدرنا — ونحن محقون — أن هذه المدرسة الأدبية المصرية ، إنما كانت مدرسة الشرق الأقـــرب كله ، مركزها مصر — أو

أهم مراكزها مصر — لما بيناه سابقاً من تصدرها فى ذلك العهد

سياسياً واجتماعيا ، لو قدرنا ذلك لعددنا من كتب هذه المدرسة مثل كذا وكذا .. الخ » .

وهذه الإشارة — فيما أحسب — هى التى وجهت النظر إلى عدم التزام الحدود الجغرافية ، عند دراسة مصر أدبياً أو علمياً .. لكن لا على أن ينتهى هذا إلى إهدار الأصول الكبرى لفكرة الاقليمية .

*
* *

ومن طريف اختلاف النظر أن ينظر شابان جامعيان إلى هذه الفكرة ، حين عرضت هذا النحو من العرض ، فيكتب أحدهما فى مجلة أدبية : أن هذا القول بها هدم للشخصية المصرية ، مادامت المدرسة كانت مدرسة الشرق الأقرب كله ، إذ لا يكون لمصر خصوصية بها . ويكتب الثانى ما سمعناه آنفاً من تحديده فكرة المصرية وبيانه معالم الشخصية المصرية بهذه الفكرة دون التزام الحدود الأرضية ، والمميزات الأقليمية .

ولا يبدو أن أحدهما قد نظر فى دقة إلى هذه الفكرة ، فالأول قد عد فيضان الشخصية المصرية على ما حولها ، وتوجيهها الدرس الادبى فى الشرق الأقرب وجهات تمليها شخصيتها ، عد ذلك هدماً للشخصية المصرية . وعدم إثبات خصوصية خاصة بها . كأنك إذا ماقلت إن مبادىء الثورة الفرنسية قد فاضت على أوربا فى عهدها ، ووجهت الحياة السياسية والإجتماعية ، تكون قد أنكرت خصوصية فرنسا فى هذه المبادىء وجهادها فى سبيلها !! وهو قول لا يحتاج إلى طويل تعليق لأبطاله .

وأما هذا الثانى فقد رأيتموه يأخذ من انتشار الطابع المصرى

على ما حوله . أن هذا الطابع القوى الذى وجه الحياة الأدبية فيما حول مصر من أقطار عرفت النفوذ المصرى ، فى أدوار من التاريخ مختلفة ، يكون من أثره أن هذه الشخصية لا تقوم على جنس بعينه ، ولا على كيان متميز خاص . ولا تحد ببيئة معروفة ، لها معالمها الجغرافية ، وحدودها الطبعية ! !

***

ونحن ننكر هذا الإهدار لمعالم البيئة المصرية ، وننكر القول بأن مصر التى نؤرخ أدبها هى مصر بحدودها الفنية التى تجاوزت البحر الأحمر ، لأن الاقليمية كما أسلفنا فى بيان مطول ، إنما هى قضية البيئة الطبعية حيثما تهيأت البيئة المتميزه المستقلة المنفصلة ، التى تكون بهذا التميز والاستقلال أهلا لأن تحتضن شعباً بعينه ، وتبرز بهـــذا التميز خصائصه المادية والمعنوية ، فنحن إنما نقدر أن مصر من هذه الناحية قد ظفرت بعوامل التميز المادى الكافى ، إذ قامت عليها حدود من الفواصل العنيفة ذات التميز القوى ، وهى البحار المائية فى شمالها وشرقها ، تعاونها بحار الرمال فى غربها والشرق ، والفواصل الجوية والأرضية فى جنوبها ، وبهذا صح أن يكون لهذه البيئة الطبيعية أو المادية مؤثراتها التى تدفع نازليها إلى التفرد والتبين ، حتى يحق ماقلناه من قبل ، ورددناه كثيراً من قيام الإقليمية الأدبية . على أصل علمى واقعى مادى يمكن معه القول بأن هذا التميز القنى : إنما هو قضية العلم فى تاريخ الأدب . . فتكون هناك الشخصية المصرية بمعالمها الواضحة ، ومقوماتها المميزة ، ثم تؤثر تلك الشخصية بعد ذلك فيما حولها شرقاً وغرباً ، ويفيض أثرها على ماحولها .

وأما ما أشار اليه متناسى الحدود الجغرافية من أن الإسلام لم يعرف الوطنية ولا العصبية، ولا عرف التفرقة بين الأقطار التى تضمها الراية الإسلامية .. الخ، فهذا شىء ما أن ننكره، ثم ما أن نقدر أثره تقديراً خاطئاً . . .

هو تدبير علمه الإسلام للناس، ودعاهم اليه، وعمل لتحقيقه، لكنه ليس إلا أملا مثالياً دفع اليه الحياة، وهذا الأمل المثالى مهما يكن له من قوة الدعوة وصحة النظرة، ولطف التدبير، وحسن التناول فلن يأتى على الواقع الطبعى نسخاً وتبديلا، ولا إعداما وتبديدا، وإنما يحاول أن يوفق ما استطاع بين غايته وبين هذا الواقع، أو إن شئت الدقة فى الملاحظة، فقل: إن نواميس الحياة تعمل لهذا التوفيق عملا يحقق المستطاع من تلك المثالية، بقدر ما تستعد الواقعية لتقبلها ومجاراتها، وقد يكون هذا الاستعداد قليلا وضئيلا فتكون النتيجة المتحققة من التوفيق بين المثالية المرجاة والواقعية المحتكمة، نتيجة يسيرة هينة، وبطيئة متأخرة . . . خذ لذلك مثلا قريبا، لك بالحديث عنه عهد قديم، هو العصبية العربية، فقد أنكرها الإسلام وحاربها، وقاوم مثيراتها، فهل ترى الحياة منذ قال الإسلام ذلك ودبر له، قد غيرت طبيعة العرب واستلت العصبية من نفوسهم استلالا ردهم أبراراً غير متدابرين ولا متناحرين ؟ ؟ ! لعل الحياة إنما جرت فى مجراها الواقعى، متأثرة فى ذلك بالممكن من مقاومة العصبية، وكان ذلك الممكن قليلا يسيراً، ففتكت العصبية العربية بالشخصية العربية نفسها، والنفوذ العربى ذاته، على ما هو معروف مقرر، وكان

ذلك قريبا بعد يسير من ظهور الدعوة الأسلامية

***

فوجه الرأى فى هـــذه المسألة ، أن دعوة الاسلام كانت عاملا مقاوماً ، أو ظرفا غير ملائم لشيوع الوطنية واحتكام الإقليمية ، فأخر ذلك ظهور الوطنيات ، واستقلال الدولات حيناً ما — ربما لايكون طويلا فى عمر الأمم — ولكنه لم يوقف ذلك أبداً ، ولم يعدمه أبداً ... ثم أثر ذلك فى صرف بعض قوى الأمة إلى نواحى الإخاء الشامل خارج حدود البيئة والإقليم ، فأخفى بعض الخصائص الإقليمية مؤقتاً ، أو غطاها إلى حين ما ؛ ولو تركت تعمل عملها دون مقاوم معوق ، وفى ظرف ملائم مناسب ، لسخرت كل قواها لإظهار نفسها ، وتثبيت شخصيتها ، فكانت تظهر الوطنية مبكرة ، وتبدو الشخصية الإقليمية بطابعها الواضح فى كل شىء لا يزاحمه ظل من نسيان ، ولا جنوح إلى تأخير أو تنحية ؛ فى سبيل ارضاء عواطف دينية أو اجتماعية ، تؤيدها عقيدة أو فكرة مسيطرة يدعى لها .

ومن ذلك مثلا أنك ترى الحجاز بمدنه ومعالمه ، يحتل مكانة واضحة فى الآداب الإقليمية المختلفة شرقاً وغرباً ، بفضل العقيدة الدينية ، وانه مركز الحرمين المكى والمدنى ، وموضع شعائر فريضة الحج ، فترى شعر التوسل ، والمدح النبوى ، يظهر فى الأقاليم المختلفة كذلك ، ويتردد فى آدابها ذكر الأماكن الحجازية كثيراً ، مهما تكن ظواهر الاقليمية فى أدبها واضحة قوية ، ومهما يكن لها من شخصية جلية واضحة المعالم ، لأن هذه الاعتبارات الدينية خليقة بأن تداخل

ذلك كله ، وتخالط ملامحه ومعالمه . . . أما إن ذلك أو أكثر منه من الاعتبارات ، يدعونا الى اطراح مشخصات البيئة وخصائصها ، فننكر أثر الحدود الجغرافية القوية الفاصلة ، ونهمل مقومات الشخصية ، لأن البيئة قد امتد أثر أهلها إلى خارج حدودها الأرضية ، أو ظهرت آثارهم فيمن حولهم من مناطق أو أناس ، فذلك ما لاحظ له من الصواب . وليس من الحق فى شىء أن يمضى قائل بالمصرية على غير هدى ، فلا هو قال بفكرة المتساهلين المتوسعين بين المفترقات والمختلفات ، ولا هو حافظ على دقة المدققين الذين يريدون أن يثبتوا الفواصل والفروق ، ولو دقت واستبهمت ! ! ذلك ما لا نحبه لأصحاب المصرية ، وإن كان لهم عذر ما فى فترة الانتقال الحاضرة .

والآن وقد وضحت فكرة المصرية ، وجادلت الاقليمية عن نفسها نريد لننتقل إلى وصف المنهج الذى تحب أن تخضع له دراسة هذا الأدب .

كيف ندرس الأدب المصرى ؟

أدب وتاريخ أدب

كان القدماء يدرسون المتن الأدبى من النثر أو الشعر ، على النحو الذى نعرفه ، فيخدمونه لغوياً ، ونحوياً ، وبلاغياً ، وبعد تفهمه باستخدام هذه المواد وما إليها ، يتذوقونه ، وينقدونه على هدى هذا التذوق الفنى ، وكذلك فعلوا فى كتب الأمالى والمجالس ، أو فى كتب الموازنة والنقد ؛ وأثناء هذا الدرس كانوا يوردون مالابد منه لفهم النص من خبر أو قصة ، يتم بها فهم ملابسات المتن ، وجوه الزمنى أو المكانى أو النفسى ، الذى يزيد فهمه وضوحاً وبيانا ؛ فكانوا يدرسون مع المتن « **ماحول المتن** » من هذه المبينات ؛ كما نراهم فى جمع دواوين الشعراء ، يوردون فى ثنايا القصائد مالابد منه من ذلك ، فيذكرون زمن القصيدة وسببها . ومن قيلت فيه ، وماقيلت فيه ، ويستوفى شراح الدواوين ماوراء هذا من بيان ذلك الجانب الذى سميناه « **ماحول النص** »

تلك هى دراسة الأدب ، أما مابعد ذلك من تاريخ الحياة الأدبية جملة ، والنظر فيها من هذا الجانب نظراً مفرداً ، وتبين خطى سيرها ونظام تنقلها ، فذلك مالا نعرف لهم فيه البحث المفرد ولا العناية الواضحة . ولعل ذلك لما كان يطمئن إليه العقل إذ ذاك فى فهم التاريخ وتصوره مقصوراً على التاريخ السياسى ، بأخص معناه ، وإدارة الحياة على الحكام وعهودهم وولاياتهم ووفياتهم ، ومايتصل بهذا .

ولما تقدمت الفكرة فى درس التاريخ ، وبدا للمفكرين أن جوانب الحياة المختلفة تستحق من الدرس المفرد ماتستحقه الحياة السياسة أو أكثر منه ، كانت ظواهر الحياة الأخرى موضع التاريخ المبين لأدوارها وخطاها فى نظام لا تضبطه سنون الحكام ولا أسماء الدول وألقاب الأسر . فالحياة الاقتصادية مثلا ، لها سيرها الذى يؤرخ فى جوه ومؤثراته دون وقوف عند السياسة ، ولا ضبط لمعالم مسير هاتيك الحياة الاقتصادية بعصر فلان أو حكم قلان . . وكذلك الحياة الدينية مثلا ؛ ومن تلك الجوانب فى حياة الجماعات ، حياة الفنون بعامة ، وحياة الأدب بخاصة ... وهكذا ظهر تاريخ الأدب وقسم ، وتقدم به الزمن فارتقى ، وخدم بما لا بد منه من النظر فى المؤثرات على تلك الحياة الأدبية والفنية ، وانتقل ذلك فيما انتقل إلى الشرق المتأثر بنهضة الغرب ، فكان لنا تاريخ للأدب العربى ، يتقسم عصوراً وعهوداً لا يعنينا هنا أن تكون قد ضبطت بما يصح ضبطها به ، أو بما لا يصح به ذلك كالسياسة فى معناها الساذج مثلا (١) .

وإذا كان فى ذلك من الاخطاء ما فيه فإنما تعنينا الإشارة هنا إلى : أننا ذهبنا فى دراستنا الثانوية أو العالية على السواء ، نصف تلك العصور أوصافا مجملة جامعة شاملة ، دون أن نبذل مايجب من جهد لدرس الأدب ، أو الحياة الأدبية فى هذه العصور .. فالعصر العباسى مثلا ، أو الأموى ، أو مالقبوا من ذلك ، توصف فيه حياة الشعر وفنونه ، أو حياة النثر — حينما يريدون بالأدب معناه الخاص — ..

---

(١) وهذا هو الوضع الذى تكلفنا بعض تصحيحه بالكلام عن الاقليمية . والدعوة اليها

ولكن كيف استقامت لنا هذه الأوصاف ؟ وهل درسنا أصحاب الشعر فى هذا العصر ، أو أصحاب النثر ؟ أو قل هل هيأنا مواد الدرس اللازمة فجمعنا ثروة هذا العصر الأدبية ، وحققناها ، ومكنا الدارسين منها ؟ لم نفعل ذلك ولا حاولناه ولا قمنا بشىء من الدراسة المفردة لشعراء هذا العصر أو كتابه دراسة أدبية بمعناها القديم ، نتذوق بها آثارهم وما خلفوا ، أو ماوصل إلى يدنا من تلك الآثار والثمار ؟ ؟ .. ما لنا دراسة جامعة شاملة لهذه الآثار ، ولا لنا دراسة جزئية خاصة لفن بعينه من آثار شاعر أو ناثر . . ولكن لنا رغم ذلك أحكاماً أدبية عامة !! وتسأل نفسك ، وتسأل أصحاب هذه الأحكام : كيف تهيأت لكم أحكام عامة شاملة مجملة كلية ، قبل أن يصح لكم علم ؛ وتتم لكم معرفة ، بل قبل أن يصح لكم مايشبه العلم والمعرفة بمواد هذا العصر وجزئياته ، حتى تصدروا على ذلك بأجمعه حكما كليا عاما ... ؟ ... تسألهم فلا تجد عندهم جوابا ، ولا تجد السبيل إلى تسوية المسألة فى نظرك ومع نفسك ...

ولكن القافلة تسير ، والضجيج يدوى ، والحياة راتبة قارة ، راضية مطمئنة ، فلا محاولة ولا شبه محاولة للاتصال بالآثار الأدبية وجمعها وتحقيقها ؛ ولا دراسة موزعة أو منظمة ، ولا شبه موزعة ولا منظمة لفنون هذه الآثار فناً فنا ، وكيف تكون هذه الدراسة وموادها لم تجمع ، بل لم تعرف ! ! !

وليس الأدب بمعناه العام — كما يقولون — أحسن من ذلك شأناً ، فكذلك يتناولون الحياة العقلية على اختلاف فروع المعرفة والعلم ، بدراسة جامعه وأحكام شامله ، دون جهد ما فى سبيل جمع مواد درسها ،

وآثارها ، ودون وقوف مَّا عند رجالها وأعلامها ، وقوفاً يتهيأ من مجموعه فهم دقيق صحيح للعصر إذا أريد ذلك . . . ورغم كل هذا فالكتب تؤلف ، والجامعة تغيش ، والرحى تطحن . والدولة تبذل ، ودعوى النهوض والتجدد تخرق الآذان فى الوادى ، والرضا شامل ، والطمأنينة سابغة ؟ ! !

***

ولنترك هذا كله مؤقتاً ، لنسأل هل كان يجب مع هذه الحال . أن يكون تاريخ الادب مادة ثقافة فى الدراسة الثانوية ، تزجى فيها تلك الأحكام القاصرة . أو الأوهام المقررة يزدردها الفتيان كما تزدرد النعام الحصى ، ثم يتقدمون إلى الدراسة العالية الادبية . وقد سمعوا ماقيل ، ومن يسمع يخل . . . فاستقرت لديهم فكر ، هيهات أن يقدروا معها أن الميدان خال ، بل مقفر ؛ وأن التاريخ الأدبى ، بل السياسى أيضاً ، مجهل لم يخض ، ومفازة لم تكشف ؛ وأن هذه الاحكام الشاملة لا يقيمها أساس أى أساس ، من بحث أو درس ، أو معرفة بآثار هذه العصور ؛ فيمضون يرددون مارددوا ، فى توسع يحسبونه فتحاً مبيناً ، وعملا جامعيا خطيراً مادام يجعلون من السطر ورقة ، أو من الصفحة كراسة ، بمثل ماينفث الغلام فى كرة المطاط ، فاذا هى قبة طائرة ! ! ؟

***

ليس يعنينا والأمر منهجى على أن نقف طويلا ، عند خاطئة أخرى ، هى أن هؤلاء الفتية يستبقون من الحياة طرائق قدداً ، فمنهم

المزارع ، والمهندس ، والطبيب ، والقانونى ، وصاحب العلم الطبيعى ، ومعلمه ، وغير هؤلاء من ذوى الفنون أو الشئون العامة ، فما لهؤلاء جميعا وتلك القضايا التاريخية العامة عن حياة الأدب . . حتى لو كانت قضايا صحيحة محققة . قد انتهى إليها بحث ، وأيدها درس ؟!! فكيف بها وهى على ما علمنا من وهن الأساس ، واضطراب القول ، ومبالغة التزيد ؟! . . بحسب هؤلاء لو كانت هناك دراسة صحيحة لتاريخ الأدب ، أن يقصروا على الدراسة الصحيحة للمادة الأدبية ، يتأثلونها ويتذوقونها ، فيصيبون منها معونة على استعمال اللغة فى الحياة ، والوفاء بأغراض النفوس من فنون القول . . .

***

هذا فى الدراسة الثانوية التى ندع إصلاحها إلى مكان القول فيه ، فما هو من شأننا هنا . . وأما الدراسة الأدبية العالية ، فما كان عجيبا أن يقدر فيها ما بسطناه من الاعتبارات ، وندبر لتحقيقها .

وهل كان بدعاً من الأمر أن تسير تلك الدراسة الأدبية العالية المتخصصة عندنا مع حاج الحياة ، وعلى تدرجها ؟ فتختلف الدراسة فى جيل عن جيل كما كان ذلك مساراً للحياة الأدبية فى الأمة العربية منذ عرف تاريخها فى التحضر . . . ، أعنى أنه كان يكون لدينا جيل أو أجيال يدرسون تحقيق النصوص ، وتصحيح المتون ، ويلمون بأصول ذلك وقواعده ، ويكون هذا عماد دراستهم التاريخية الأدبية ، إلى جانب ما يؤخذون به من دراسة المتون الأدبية حفظاً وشرحاً وتذوقاً ؟

ثم إذا ما اكتمل لنا ذلك ، كان لنا بعدهم جيل أو أكثر . يدرس

رجال هذا الأدب ، أو وجوههم البارزين واحداً واحداً ، يلمون بأدبه ، ويدونون خصائصه ، بعد أن يكون قد أحصى ، وحقق ، وشرح ...

ثم يكون لنا جيل أو أكثر ، يدرسون عوامل التأثير فى الحياة الأدبية عاملا عاملا . . . يتتبعون ذلك جمعاً وضبطاً ، ثم فحصاً وتحقيقا ؟ ...

ثم يكون لنا أخيراً وبعد ذلك كله من يستطيع الكلام فى العصور جملة ، وبأحكام عامة ، إذ يجد مراد هذه العصور الجزئية مجموعة ، ثم محققة وممحصة ، ثم مدروسة ومقدرة ، كما يجد حواليها المؤثرات فى الحياة الأدبية مجموعة ، ثم مدروسة ، ثم مؤرخة ..؟ !

وبهذا تقوم تلك الأجيال بالعمل الطبعى ، فى تكوين التاريخ الأدبى لأمة طويلة العمر ، تقادم العهد بلغتها ، فأفنت بضعة عشر قرناً ، وهى يقظة ناشطة مثمرة ، تكفى حاجات الملايين فى مختلف الأقطار والأنحاء من الدنيا القديمة ، ثم من الدنيا الجديدة أخيراً .. وهو العمر الطويل ، لم يتح للغة ما ، ولم يتنفس به أدب ما من آداب العالم . وهو الامتداد الفسيح المدى ، لم يكد يتهيأ كذلك للغة فى هذه الأنحاء من الأرض ، على ذلك التطاول من العمر ؟ !

. . .

وهل يبدو هذا المسلك فى الدرس غريباً حينما نصفه الآن ، مع أن هذا التدرج هو الذى كان طريق سير الدراسة الادبية ، فيما مضى من العصور ، على ترتيب الزمن ومقتضى الحاجة ؟ ! ألم يكن المتأدب أيام غلبة البداوة يتأدب بملازمة الشاعر يتبعه ويروى له .. ثم راح بعد المشاركة فى التحضر يتأدب بالخروج إلى البادية يأخذ عن الخلص فيها .. أو جعل

يتأدب باستقدام البداة الى المدن والقصور . . . ثم مضى يتأدب بالرواية والتلقى والحفظ . . . ثم صار يتأدب بالإملاء والتدوين ، ثم تحول يتأدب بالدرس والقراءة . . . الخ ، ما كان من خطوات ذلك مسايرة للحياة ؟

لقد كان ينبغى أن يكون تأدب المتأدبين اليوم فينا ، منذ أردنا مجاراة نهضات الأمم ، بالعناية الموفرة على مرحلة الدرس التى تتطلبها طبائع الأشياء ، ويقوم بها سداد العوز ؟ ... ولكننا لم نفعل ، ولا أدرى متى سنفعل ؟ فقد بدأنا من النهاية فلم نقم آخرنا على أول صحيح ، ولا صححنا أولا ليقام عليه بعدنا آخر ، يتراه غيرنا . . . فمتى يصح هذا ويستقيم فيه سير الدرس الأدبى ، والنظرة الادبية إلى حياة هذا الشرق . ؟ !

بين الأدب وتاريخ الأدب

على أن وراء ذلك كله شيئا لا يمكن إغفاله وهو : اضطراب الأمر فيما بين الأدب وتاريخ الأدب ، ذلك أن هذا التاريخ الأدبى إنما مادته الكبرى هى المتون الأدبية نفسها . يجب أن تفهم وتتمثل ، لتؤرخ ويؤرخ أصحابها .. ثم هذا الفهم الصحيح للمتن الأدبى يقوم على أشياء : منها ما يعد الآن من التاريخ الأدبى نفسه ، مع أنه لا بد منه لفهم هذه المتون على وجهها !.. فكيف يكون الأمر ، ما دامت الحال على هذا الدور بينهما : يقوم تاريخ الأدب على فهم الأدب ، ويقوم فهم الأدب على شىء يعد من تاريخ الأدب ؟ ! !

أحسب أنه كان من هذا الاضطراب ، أن اضطرب منهج مؤرخى الآداب عندنا فلم لم يقيموا درس تاريخ الأدب على أساس من فهم الأدب نفسه ، ذلك الفهم الكامل المتعمق ، بل راحوا يلتمسون ألواناً من الفروض والاحتمالات ، لا سند لها ولا أساس ، بنوا عليها هيكلا ورقياً من تأريخ الأدب .. وأكثر هذه للفروض ينتزع انتزاعا من وادى المشابهة المزعومة ، التى تقام على أيسر وجه من الشركة بين الأدب العربى فى عصر من العصور ، وبين أدب أمة أخرى فى عصر ما من عصورها ، فينتزعون من هذه المشابهة التى يكفى القائل بها ، أن يجد لها بوادر لائحة ، ومخايل مخيلة — مهما تكن بعيدة — لينتزع منها مسالك لسير الحياة الأدبية ، على صور المسالك والاتجاهات التى لمحها مؤرخو الآداب المحققون عند أهل هذه العصور فى الأمم الأخرى ..

فآونة ترى صورة من الحياة اليونانية القديمة ، أو الرومانية القديمة. أو هى الفرنسية الحديثة ، أو لتكن الانجليزية الحديثة ، تقتسر الحوادث على أن تسير فى طريقها وتفسر بمعالمها.. وهى من ذلك بعيدة ، جد البعد غير ملتئم أولها مع آخرها .. وسر المسألة أن هذا الأدب العربى المؤرخ لم يدرس درسا يفتح مغالق الطرق التى مر بها . وهؤلاء الأدباء الذين صنعوه ، لم نفهم حياتهم ، فنفهم بذلك آثارهم ، وتستبين أغراضهم ، وتتضح مسارب هذه الاتجاهات والنزعات إلى نفوسهم ؛ فلم يبق للدارسين المستريحين إلا هذه المشابهة الظاهرة ، فالفروض المنتزعة من المشابهة المزعومة ؛ فالضغط القاتل الحاطم الذى يضع هذه الحياة الشرقية ، وهذا الأدب الشرقى فى قوالب الحياة الأخرى البعيدة ، التى شبهت بها لمخايل لائحة من بعد . ! !

* * *

وما يعنينا هنا أن نبين فى إسهاب مآثم هذه الاتجاهات الفرضية وما ماثلها فى حياة الدراسة الأدبية ؛ ... إنما الذى نقصد اليه أولا هو : بيان أثر هذا التداخل بين الأدب وما هو من تاريخه لتلفت إلى وجوب تنسيق الدراسة الأدبية ، مع وجود هذا الذى يبدو من التراكب والتداخل ، فى فهم المحدثين للادب وتاريخ الأدب . .

* * *

وأساس هذا التنسيق — فيما يبدو لى — يستقر على ما قدمت آنفاً من فهم دقيق لتاريخ الأدب ، وأنه ليس إلا تبينا لمظهر من مظاهر الحياة الانسانية فى سيرها وتدرجها ، وتفهما لتطورها وانتقالها : كيف كان ذلك ؟ وكيف تم ؟ وما معالمه الخاصة به المميزة له ؟ فى جوه المعين ، غير مضبوط بمعالم أجنبية من اعتبارات سياسية ، أو فواصل من الدول والأسر على ما يفعلون . .

وهذا التاريخ الأدبى انما هو ، وصف على بقدر ما تستطيع الطاقة الانسانية ، للون من ألوان الحياة الفنية فى وجود الجماعات البشرية ، . وصف يرصد نواميس تلك الحياة ويسجل ظواهرها ، ويكشفها للدارس ، كما يكشف البحث العلمى حياة كائن من الكائنات ، ويعرف بمعالم ذلك وقوانينة . وهذا المعنى المرجو فى تاريخ الأدب والادباء يباعد كثيراً بينه وبين التشبث الساذج بالسنين والأعوام ، والأماكن ، والسرد القصصى ، لواقعات الحياة وأحداثها ، كما يجعل هذا التاريخ الأدبى يفرق من أن يطلق هاتيك الاحكام العابرة الفضفاضة عن حياة عصر ، ووجود فن ، وطابع متفنن ، وخصائص فرد أو جماعة ، على نحو ما يطلق ذلك اليوم ، فى سهولة مستهينة ، ويسر مستخف . . .

وهذا المعنى المرجو فى تاريخ الأدب ، يقطع الطريق على مثل هذا كله ، حين يتمثل وعورة السبيل ، وخفاء المعالم ، وصعوبة المطلب ، وجلال الغاية ، فيطيل الدرس ، ويمعن فى التأمل ، ويحسن التثبت ، ويجيد التدقيق ، ويجعل كل هذه المئنات التى اكتفينا بها فى تاريخ الادب ، وخدعنا بها عن الواجب الأمثل فيه ، يجعل كل هذه مقدمات أولى ، يمكن أن تخص باسم « **ما حول المتن الادبى** » أو « **ما لابد منه لفهم الادب** » أو « **أدوات الدرس الادبى** » . . أو ماشئت أن تتخذه من أسماء مشبهة لذلك ، لاجناح عليك فى تخيرها ، فأنما موضع العناية عندى أن تشعر بأن هذه المحاولات كلها ، شىء يتيسر به درس النص الادبى ، ويجعلك تفهم المتن فهماً مجدياً ، له أثره فى تكوين الذوق الادبى ، أو تكميل شخصيات الموهوبين من دارسى الآداب ، بأرهاف

أذواقهم . . ثم له بعد ذلك معاونته الهامة فى تحقيق التاريخ الادبى على النحو الذى تمثلناه آنفاً . . .

وبهذا لا يكون هناك تداخل ولا تراكب بين صنفى الدراسة ، ولا دور فى فهم الأدب وتاريخ الادب ، حتى يتوقف كل منهما على صاحبه ـ كما يقول المتكلمون ـ ، إذ تكون الحقائق التاريخية أو الاجتماعية التى لابد منها لفهم الادب ، من مواد دراسة الادب وأدواتها . ثم إذا ما تم هذا الدرس على النحو المبتغى ، فكرنا فى كتابة تاريخ الادب ، تلك الكتابة الصحيحة الدقيقة التى تجرؤ على تقسيم العصور وتبيين معالم الادوار ، على هدى من الاعتبارات الفنية المحتكمة فى حياة الأدب نفسه ، وعلى بينة من حال هذا الأدب ، حتى يبدو فرق ما بين العصر والعصر ، وحد ما بين الدور والدور ، جلياً متميزاً . . ثم تقدم لك من وصف العصر وخصائص العهد ، ومسير الحياة الأدبية فيه ، ماهو بيان حقيقى لحياة الفن القولى ، لا التماس لظواهر موهومة ، وفروض مفروضة ، تنتزع من بوادر لائحة ، أو ملامح متخيلة ، أو شواهد خاطفة . . وإذن فلن يعنى هذا الوصف التاريخى للحياة الأدبية — أى تاريخ الأدب — بأعلام الأدباء وتحقيقها ، ولا بسنى الميلاد والوفيات ورصدها ، ولا بأحداث حياة هؤلاء الأدباء مع فلان الوالى وفلان الحاكم ، ونحو هذا لأن تلك كلها قد ذهب بها درس ما حول الأدب . ولأن تاريخ الأدب إنما يعنى بما وراء ذلك جميعه من قوى محركة ، وتيارات موجهة ، ونواميس ضابطة . بعد ما قد فرغ الدارس من فهم كل ما هو ضرورى لذلك من أخبار وأحداث . وفرغ من الفهم

النفسى لآثارها الفردية والاجتماعية . . . من الفهم الاجتماعى لنتائجها المترتبة عليها ، كما قد فرغ من تقدير ما خلف ذلك من أثر فى متون الأدب ونصوصه ... ومن فرغ من كل أولئك فقد استطاع أن يستشف الخفى من هاتيك القوى ، وتلك التيارات ، وأولئك النواميس المتصلة بالحياة الأدبية ، والتى يحاول المؤرخ التحدث عنها والتصدى لوصفها ، فتكشفت له الحياة الأدبية ومسارب تطورها وخطوات تدرجها ، كما يتمثلها التاريخ بمعناه الصحيح ، ومفهومه الحديث حينما يتحدث عن صنوف الحيوات الإنسانية المختلفة من دينية ودنيوية ، ومعنوية وعملية .

. . .

ومن هنا يكون التنسيق الصحيح للدراسة الادبية هكذا : أنها تحقيق النص الادبى تحقيقاً علمياً ناقداً (١)

---

(١) ذكرنا جمع الثروة الأدبية وتحقيقها ص٨٦ ؛ وذكرنا تحقيق النصوص وتصحيح المتون ص٨٨ . ونذكر هنا هذا التحقيق العلمى الناقد للنص القديم ، وكل أولئك تعبير عن الخطوة الأولى ، وحجر الأساس فى الدراسة المفيدة ، ولكنا يهملها ولا نعنى بها ، ناسين فى ذلك خطة أسلافنا الأقدمين ، غافلين عن منهج المحدثين الناهضين . . وفى سبيل إصلاح هذا النقص الكبير ، حاولت منذ بضع سنين — سنة ١٩٣٧ م — أن ألفت أصحاب الشأن فى توجيه الحياة الأدبية والتدبير لها ، إلى تلافى هذا ، والإعداد له ، فقدمت تقريراً كان مكانه حينما لملفات كلية الآداب ، وحينا ألفاف وزارة المعارف ؛ ولم يتهيأ له ذلك العامل السحرى المبهم الذى يسير الحياة والتفكير عندنا ، على غير أساس معروف . . فتذكرت وأنا أتحدث هنا عن تحقيق النص الأدبى تحقيقاً علمياً ناقداً ، وأصف المنهج الأدبى المرجو ، أن أبعث هذا التقرير إلى النور ، بنشره فى ذيل هذه الصفحات ، لعله يجد فى الناس أذنا صاغية يتهيأ بها من الارادة مايدفع إلى شىء من العمل ؛ وهذا هو :

ثم الإلمام التام بما حول هذا المتن الادبى من اعتبارات عملية ومعنوية ، مادية ونفسية ، فردية واجتماعية ، كالحوادث الملابسة .

= حضرة صاحب العزة عميد كلية الآداب

لعلى حين اتحدث اليكم أنتم ، عن الجامعة ورسالتها أكون أغنى الناس عن الاشارة ، إلى ما كابدت مصر المجاهدة فى سبيل الجامعة ، وما رجت مصر — ولا تزال ترجوه — من الجامعة . . ثم ما على كلية الآداب بخاصة من واجب ، وما يناط بها من أمل ، فى رعاية الحياة الأدبية فى مصر ، وتوجيهها والتدبير لذلك كله ، والجهاد فى سبيله . كما لا أجد بى حاجة فى هذا المقام ، إلى الاشارة لشىء من نواميس الاجتماع ، فى النهضات وأدوارها ، وما تقوم عليه من عناصر ، فأدع الحديث فى شىء من هذا كله ؛ لأنكم تقدرونه خير التقدير ، بل تحسنون الدعاوة له .

***

وأتحدث فى موضوعى مباشرة فأقول :

إن النهضات فيما عرف التاريخ تقوم بعناصر : من ميراث يتلقى عن الأسلاف ؛ ثم تلقيح خارجى بما يجتلب ممن حول أصحاب النهضة ، من أمم عاملة ماضية أو شاهدة ؛ ثم استثمار جاد يفيد من ذلك كله ، حين يصل بين أجزائه وينميه .

ولغة يسيرة لحياتنا العقلية والفنية ، تكفى لإدراك أن هذه العناصر الثلاثة لم يكتمل لهذه النهضة واحد منها اكتمالا صحيحاً ؛ أوقل لم تدبر هذه النهضة لإكماله تدبيراً منظما ذا أثر .

أنا لا أنكر أن محاولات ما ، فى سبيل جمع التراث القديم لحضارة أسلافنا ، قد بذلت بالأمس القريب ، أو لا يزال يبذل القليل منها اليوم ، لكنها متقطعة فردية فاترة . . كما أن محاولات أخرى ، قد بذلت وتبذل لنقل أطراف ، من ثقافة الغرب الادبية والعلمية إلى لغتنا ، لكنها كذلك محاولات ضعيفة فردية ، مبددة ، وكثيرا ما تكون ، مضطربة الوجهة ، غير مسددة لغاية .

كل هذا وقع ، ويقع حولنا ، فى الوقت الذى تدأب فيه كلية الآداب ، فى سبيل أن تؤصل منهجاً دراسياً صحيحاً ، سليم الاصول ، وقد قطعت فى هذا الطريق أشواطا ، لا بأس بها ، فى سبيل هذا المنهج . . على حين تدأب

والبيئة المؤثرة ؛ فى صورتها المادية والمعنوية بأوسع ما تدل عليه البيئة

ثم فهم هذا النص بهداية تلك الأضواء الحافة به ، ومع الاعتماد

= كليات الجامعة الأخرى — أو يجب أن تدأب — على بث الحياة والروح ، فى سائر فروع المعرفة . . فاذا ما أرادت كلية الآداب ، أو أرادت كليات الجامعة بعامة ، أن يكون عملها فى سبيل هـذا الإحياء مؤثراً ، ومسايراً للخطى الموفقة فى سير النهضات ، وجب أن يتيسر لها جميعا الاتصال التام بتراث أسلافها العقلى . . لكن واحداً من هؤلاء — سواء الأديب والعالم — لا يظفر بالمصادر اللازمة له من هذا الميراث الذى خلفه أهله ، فلا يهتدى لشىء ذى قيمة ، من تاريخ حياة هذه الدراسات عندهم ، وما يستطيع أن يبنى عليه اليوم ، من عمل قام به من قبله فى حياتها . . والأديب والعالم فينا ميال أو مضطر — ويا للاسف — للاعتماد على الغرباء عنهم ، فيما يمكن أن يهتدى اليه من مخلفات هذه الثروة التى نحن أهلها وأحق بها ! !

* * *

لقد أغرى أبناؤنا بالمنهج الجديد فى دراسة الأدب والتاريخ مثلا ، فلما ذهبوا يحاولون درس شىء من هذا الأدب والتاريخ ، على قوانين هذا المنهج لم تتهيأ لهم مواد الدرس ، إذ لم يجدوا المصـادر المعرفة به ، ولا الثروة المسعفة من المراجع ومادة الدراسة . . ومن يتصدى لشىء من هذه الابحاث مضطر إلى أن يكد ويشقى فى الوصول إلى بعض المراجع الخطية ، فيقاسى فى سبيل الوصول إلى شىء من هذه المصادر والآثار القديمة ، أضعاف ما يقاسى فى بحث الموضوع ودرسه ، على أنه سيظل بعد ذلك رهن الصدفة المحضة ، والاتفاق الصرف ، شاعراً — مع كل مضض — بأن هناك مراجع ، قد تكون أغنى وأجدى مما استطاعت أن تناله يده ، ولـكن كيف السبيل اليها ؟!

ولقد تذكر كلية الآداب ، أنها حين ابتغت إحيـاء أبطال الجهاد الأدبى والفكرى ، بمثل ما أقامته من أسبوع الجاحظ ، فى العام الماضى ، لم أتردد فى الجهر ، بأن من الخطأ المنهجى ، أن نتحدث عن دقائق الحياة الفكرية والفنية لرجل ، لا نعرف مواضع آثاره ، ولا يقع لنا قليل أو كثير منها صحيحا أو محققا . =

على وسائط هذا الفهم من علوم العربية وفنونها الادبية ، التى لابد منها

= تلك كلها مشاهدات وشواهد ، دفعتنى إلى التفكير فى ضرورة ، إمداد هذه النهضة بتنظيم يكمل نقصها ، ويسدد خطواتها ، فيوفر وقتها ، ويزيد جدوى عملها ، ويدفع عنا معرة الرضا البليد ، بما قطعته تلك النهضة ، من خطى وئيدة ، غير مرضية للطموح المصرى .

وقد رأينا أن أول تلك الخطوات ، هو الإحياء الكامل الصحيح ، لميراثنا العلمى والفنى القديم ، وتيسير مصادر تاريخنا ، تيسيراً يعين على تحقيقها والانتفاع الصادق بها . . وهذا الإحياء بلاشك هو الأساس لكل ما نحاول بناءه فى مختلف الميادين ، وجميع نواحى النشاط .

وإنما يبدأ هذا الاحياء بجمع الآثار العلمية والفنية ، التى تناهبتها الايام ، وفرقها الدهر بدداً فى الغرب والشرق ، ولا يتحقق هذا الجمع ، بصورة تلائم كرامتنا ، وتغذى نهضتنا ألا بأن نصمم على استكمال ما يأتى :

ا — أن تملك مصر أصلا — إن استطاعت — وإلا فصورة شمسية ، على الأقل ، من كل ما عرفه العالم من أثر يتصل بالحضارة الاسلامية ، فى أى فرع من فروعها المختلفة ، سواء فى ذلك ما كان بالعربية ، وما كان بغيرها من اللغات ، على أن نبدأ بالعربى منها نستكمله ، وحسب مصر أن تعنى به وحدها . . وأما غير العربى فتتعاون على إتمام جمع آثاره الشعوب الشرقية الاسلامية ، متآزرة . . وهو مشروع آخر ، يفكر فيه ، على هدأة ، بعد إتمام العمل الخاص بالآثار العربية .

ب — أن يوضع لذلك كله فهرست وصفى ، تفصيلى ، يعطى الفكرة الكاملة الواضحة ، عن الأثر وما احتواه من أبحاث ، كما هو الشأن فى فهارس المكتبات عند الأمم الراقية ، فيكون هذا الفهرست الوصفى تاريخا تخطيطيا جامعا لمصادر الثقافة الاسلامية المختلفة ، وبه يتهيأ لمن يدرس فرعا من الفروع المتعددة فى هذه الحضارة ، إن يهتدى ، إلى كل ما رأى النور ، من آثار الأقدمين ، فى موضوعه ، فبرجعة أخرى إلى فهرس المطبوع من الآثار القديمة يجتمع للباحث فى وقت قصير ، وبجهد يسير ، ما هو فى حاجة اليه من المصادر ، واثقا من عدد هذه المصادر ، وقيمتها العلمية ودرجة حاجته إلى كل منها ،

لإدراك النص الادبى فى لغة من اللغات ، وبذلك يتم درس الادب فى معناه الصحيح

= فيوجه موفور قوته ، إلى تصحيح منهج الدرس وتقويم خطته ، ليخرج من عمله بنتائج قيمة .

* * *

وسيكون تقريب هذه الآثار ، على هـذا الوجه ، من أيدى الباحثين ، وتعريفهم بها ، سببا للعناية باخراجها ونشرها ، محققة مصححة ، فتطبع وتذاع ، وينتفع بها الدارسون انتفاعا كاملا يسيرا .

فاذا ما تم هذا الجمع والوصف المقرب لهـذا الميراث ، فتم تحقيق أنساب الكتب ونصوصها ، وهان نشرها نشراً علمياً ، كانت المرحلة الثانية وهى: إمداد هذا التراث بالدم العصرى ، وتلقيحه بعناصر الحياة الجادة ؛ بأن تترجم الأصول الكبرى للدراسات القديمة والحديثة ، ترجمة صحيحة دقيقة . . وأنها لمرحلة تحتاج ولا غرو — إلى جهد منظم ، لانصفه هنا ، لأنا نقصر هذا التقرير على مرحلة الإحياء الأولى ، التى نحس بأنها قد تخطيت ، ونخشى ألا تعود العناية اليها ، مع أنها أساس أسبق وأقوى .

* * *

والعمل الذى نقترحه فى الاحياء ، على هذا الوصف ، ضخم ، أقدر تمام التقدير ، ما يتطلب من وقت وجهد ومال ، وقد أطلت التفكير فيه ، قبل أن أقول عنه كلمة ما ، وكدت بعد هذا التفكير أتصدى لوضع خطة تفصيلية ، أو شبه تفصيلية ، لأهون من صعوبته ، وأقرب تنفيذه ، ولـكنى آثرت آخر الأمر أن أترك ذلك إلى ما بعد تقليب الآراء المختلفة ، والانتفاع بمختلف التجاريب من أصحاب الخبرة فى ذلك كلهم .

وحسى هنا ، ان أشير إلى أن هذا المشروع فى الإحياء ليس مشروع كلية الآداب وحدها ، ولا مشروع الجامعة وحدها ، بل ليس مشروع وزارة المعارف وحدها أيضا .. وإنما هو مشروع الحيوية المصرية ، والنهضة المصرية ، ندرك جميعاً من قرب أن التآزر فيه ، والتأتى له ، والجود عليه =

ثم إذا ما اكتمل ذلك فيما خلف من آثار ، وفيمن عرف من أشخاص ، أمكن التصدى بعد هذا كله ، وعلى هينة من الأمر ، وفى هدوء فاحص لجوانب الحياة (١) الأخرى ، وما دون من تاريخها

= بالمال والارادة الواثقة بنفسها ، ضرورى جد الضرورة .. فتتآزر عليه الوزارات المختلفة ، كوزارة المعارف ، ووزارة الأوقاف ، ووزارة الخارجية ، وتتكاتف فى سبيله الهيئات المختلفة ، كالجامعة ، والأزهر ، ودار الكتب أودورها إن كانت ، إلى جماعات ولجان ومعاهد حرة ، وأفراد هاوين ، وترصد له الأموال ، من أوجه مختلفة ، حكومية ، وأهلية . . . ويوزع على بضع سنوات ، فيكون مشروع خمس سنوات أوسبع سنوات ، ويستعان فيه بنشاط الشبان أول تخرجهم ، وقبل اشتغالهم بأعمال راتبة ، فيبذلون إذ ذاك من نشاطهم ما يفيد ، ويكتفون من المكافأة بأيسرها .. وتلك وما اليها تخطيطات عامة أدع تفصيلها إلى حين البحث التنفيذى للمشروع ، أذ يستعان فيه بخبرة أصحاب الخبرة جميعا .

ولعله ليس من التعجل أن أقترح منذ الآن تأليف لجنة أولى مؤقتا ، من عميد كلية الآداب ، ومدير دار الكتب ، ومدير مكتبة الجامعة ، ومن يشترك فى ذلك من المكتبة الأزهرية مثلا ، ومن يضمونهم اليهم ، لتضع هذه اللجنة التخطيط العام التقريبى لتنفيذ المشروع ، وتقسم دراسته وتوجهها ، وتقدر الأموال والأعوام لذلك .

أما الدعوة إلى هذا الاحياء ، وإقناع الحكومة به ، واكتساب عطف الجمهور عليه ، فذلك وما إليه هو ما آمل فيه الخير كله ، من عنايتكم الخاصة ، واقتناعكم بفائدته . وتقديركم أن من واجب كلية الآداب الدعوة له أداء لرسالتها ، وإقراراً للنهضة المصرية على أصولها القوية ، وتوجيها للحياة الأدبية المصرية ، إلى غايتها الرشيدة .

(١) هنا تتآزر وحدات جيش النهضة ، فيجد صاحب تاريخ الأدب حاجته من نتائج الدرس الناضج فى تاريخ الفلسفة والدين ، وفى التاريخ السياسى والحياة العملية ، وفى تاريخ الفنون الأخرى غير الأدب ، يجدها =

وما سجل من وصفها ، لتتبع الوشائج التى تصلها بالجانب الادبى للحياة ، وتكشف عن تبادل التفاعل معها . . . أعنى أنا كما فهمنا أثر ظواهر الحياة المختلفة على الأديب والأدب ، نطلع ما استطعنا على تاريخ الكل بهذه الظواهر

وإذا ما تيسر ذلك كله استطاع مؤرخ الآداب ، أن يلمح على مصور الحياة ، مناطق متميزة ، وفوارق واضحة . أعتقد أنه باستبانتها قادر على تأريخ الحياة الادبية ووصف أدوارها . . ثم هو قادر فى وصف هذه الأدوار ، على بيان مسالك الحياة الادبية فيها ، وكيف سارت ، فأسرعت أو أبطأت ، أو توقفت ، واعتدلت أو انحرفت ، أو تذبذبت ، وارتقت أو انحطت ، أو جمدت . وأشباه هذه النتائج التى تستطيع الأمة بالنظر اليها أن تعرف هدفها من طريق التدرج وسبيل التطور فى الفن ، وأن تدرك أين يقع حاضرها من ماضيها ، وأى مستقبل فى وراء هذا كله ينتظرها ؟ . . كما تستطيع الأمه أن تظفر بمثل ذلك فى حياتها الاقتصادية إذا ما أرختها ، أو حياتها السياسية إذا تتبعتها ، أو غيرهاتين من جوانب الحياة حين تدرسه . .

***

هذا هو الأدب ، وذاك هو تاريخ الادب — فيما أفهم — أما أن ذلك يسير سهل ، أو عسير شاق ، وماذا يحتاج من زمن ، أو جهد ، أو تعاون فما يعنينى أن أقف عنده لأبتهج بيسره إن كان يسيراً ، أو أهون من

= منه بمنال ، لا يتكلفها ولا يقف عندها وقفة خاصة . كما نفعل نحن فى تناول الجوانب المختلفة للحياة تناولا يسيراً لا غناء فيه نمهد به للدراسة الأدبيه الخاصة .

عسره إن كان عسيراً ، لأنه واجب ؛ ولأنه لا بد أن يتم ، ولأنه سيقوم به من يتمه إذا قعدت بنا وبمن قبلنا الهمة عنه ، وستكون لنا لذة المعاناة ، ثم غبطة الظفر ، إذا ما تهيأ لنا إتمام شيء منه . ولكل عامل من الظفر ما أراد وطلب .

تلك هي الخطة التي ندعو اليها جادين ، ونحاولها مجتهدين ، ونطمع أن يكون لتلك الدعوة ، وهاتيك المحاولة أثرهما في نهوض حياتنا الأدبية ، ومهما يحملنا التواضع على التهوين من شان ما نستطيعه وما نقدر عليه فيها ، وما تقوم به لها ، فان هذا التواضع لن ينسينا دقة نظم الكون ، حتى ما يتخلف أثر عن مؤثره ، ولا يضيع عمل مهما يكن يسيراً أو صغيراً .. والأمل معقود دائماً ، بأن ما انغمر من هذا كله أو خفي عن الاعلان ، لن يخفى على حس النواميس الاجتماعية ، ولن تخطئه عين الدهر ، ولن يفوت أذن الزمن ، وإن أعوزه الدوي الصاخب ، والضجيج اللافت ، والصيت الكافي . فما زال حجر الأساس لا تراه الشمس ولا يغمره النور .

منهج الأدب المصرى وتاريخه

أثر الاقليمية فى المنهج :

ما مضى من القول فى الأدب وتاريخه ، وكيف ينسق درسهما . هو القولة الشاملة العامة فى ذلك ، تصدق فى درس أدب رجل ، صدقها فى درس أدب عصر ، أو أمة ، كما تصدق حين يتبع المنهج الشائع ، فى تقسيمه الزمنى المتعارف ، كصدقها حين يصحح هذا المنهج تصحيحه الذى تنشده ، فيدرس الأدب فى بيئته التى نمته ، ومؤثراته التى وجهته . . واذ كانت تلك هى القولة الشاملة الصادقة فى كل حال ، فانا نقصد بعدها ، الى الحديث الخاص ، عن أثر الاقليمية فى المنهج ، ومانقضى به من النظر فى حياة الأدب المصرى المدروس ، من حيث اتصاله ببيئته ، وتأثره بالعوامل التى وجهته ، وانفعل بها كما هو شأن كل كائن مادى أو معنوى ، لنرسم بذلك المنهج الصحيح لدراسة الأدب المصرى وتاريخه ، على هدى الاعتبارات العلمية المجربة ، لا الاحتمالات والفروض المظنونة .

* * *

وأول الحديث الخاص عن أثر الإقليمية فى المنهج ، أن نلفت النظر إلى أن هذا الأدب المصرى ، الذى نقصد إلى دراسته فيما تخصصه ملابسات حياتنا ، وتقيده ظروفنا العلمية والعملية ، من

حيث ما نقوم به من عمل فى كلية الآداب ، وعلى خططها ، أنما هو أدب مصر الاسلامية منذ عرفت مصر هذا العهد ، من الحياة الجديدة ، بعد مجىء الاسلام اليها ، واستقرار الشعب الذى حمل هذا الدين بين أهلها . وهذا العهد فى حياة مصر ، ليس أول ، ولا أسبق ، ولا أجل ماعرفت مصرنا من عصور تاريخها . . فلقد كتبت مصر تاريخها ، قبل مجىء الاسلام بآلاف من السنين غير قليلة . ثم جاءها هذا الاسلام بعد ما مرت بألوان من الحياة متنوعة ، وصور فيها متعددة ، .. ولو كنت ممن يشبهون حياة الأمم بحياة الأفراد فى أعمارهم ، لوسعنى أن أقول : إن العرب والاسلام قد جاءا مصر وهى فى نضج واكتمال ، بل جاءاها وهى على تمام واكتهال . ولكنى لا ألتزم هذا الرأى ، فى جعل حياة الأمم كحياة الأفراد فى أعمارها . . . ثم هذه مصر نفسها ينفى واقع حياتها هذا الرأى وينقضه ، فلقد جددت مصر شبابها فى الاسلام ، واستأنفت مجدها بل جددته قبل الاسلام غير مرة . وستظل تتجدد آماداً وآماداً ، لا يعلم مداها إلا الله ...

وإذا ماكانت هذه العربية والاسلام ، قد جاءا مصر عن تاريخ مستقر ، وماض راسخ ، وحياة قارة ، فقد وجب ألا يكون موقفنا فى الحديث عن هذا الشعب العتيد ، أو عن البيئة أو اللغة ، على غرار حديثنا عن أمة ، يؤرخ أدبها منذ أول عهدها المعروف بالوجود ، وتاريخها الثابت على النقل ، وبخبرها الذى يمكن أن يلتقط ، كالأمة العربيـــة مثلا حين نبدأ تاريخها الأدبى ، بما يسمونه جاهليتها الثانية ، قبل الاسلام بقرن وبعض الآخر ! ! . . كلا ، بل

أن علينا أن ننظر فى مصر إلى هذا التحول الجديد والانتقال الطارىء ، ونقدر أنه ليس إلا امتداداً مسايراً لما كان ، واستمرارا لماض ، تأبى سنن الكون أن ينقطع ويندثر ، أو يختفى من الحياة ويمحى . وقد سبقت لنا الاشارة إلى هذا المعنى ، وما قرره المستشرق « بيكر » بشأن الأمم ، التى جاءها الاسلام فسير حياتها فى طريقها الأول ، بعد تغيير شكلى ، أو تدوين خارجى — انظر ص ٤٠ — ٤١

ومعنى هذا أن أدب مصر الاسلامية ، فى لغتها العربية ، لا يبدأ درسه من حيث اتصلت مصر بهذه العربية ، وتخذتها لغة حياة وفن ، لأن هذا فى حساب التاريخ ليس مبدأ تاريخيا ، وليست العربية فى هذه البيئة ، كما كانت فى بيئتها بالجزيرة ، لا تضبط ماضيا ذا آثار ، ولا تتصل بتراث باق على الأيام . فكان أول درسها ، وبدء النظر فيها ، هو هذه الجاهلية الثانية كما أشرنا . . ليس أمر العربية فى مصر على مثال هذا ، بل هى فى تلك البيئة . قد لقيت اغة أو لغات ، وخالطت أدبا أو آدابا ، عرف الزمن لها جميعاً ، وجوداً قويا ، ومنزلة معروفة ، فتأثرت العربية بكل أولئك ، وتأثر به أدبها وفنها ، الذى ظهر فى هذه البيئة الجديدة ، . . وتلك الفكرة هى — كما أسلفنا — حجر الأساس فى فكرة الاقليمية ، وهدف التوجيه ، الذى تبغيه فى درس الأدب المصرى وتاريخه ، والنظر فى ذلك ، على دليل من واقع الحياة ، وبصيرة من سير التاريخ .

وإذا لم تكن أولية العربيه فى مصر ، هى أوليتها فى الجزيرة ، بل إنها قد بنيت فى مصر على أساس ، ووصلت وجودها — لا محالة —

بما قبله من وجود سابق ، للغة أخرى أو لغات ، وأدب آخر أو آداب ، وفنون أخرى وعلوم ، فقد وجب — فى حساب العلم — ألا يرتفع بناء لأدب مصر الاسلامية . إلا على أساس راسخ ، من الأدب فى مصر السابقة على الاسلام ، إلى أول ماعرف الدهر من قديمها — لأن هذا الجديد الاسلامى ليس إلا امتداداً متصلا ، واستمراراً متتاليا لما كان ، على — ما بينا .

وهذه البيئة المصريه ، أو غيرها من البيئات ، كما تحددها الفطرة ، إنما هى بوتقة تصهر فيها الطبيعة عناصر ومواد تكثر أو تقل تبعا لما يطرأ على تلك البيئة ، فتخرج منها يد القدر ، موجوداً له خواصه ، ومميزاته ... والعربية عنصر أو مادة ، مما ألقت يد الله فى هذه البوتقه ، فصهرته حرارة الحياة ، وقوة التحول ، ووصلت بينه وبين غيره من عناصر أو مواد كانت فى هذه البوتقة وسواء أغلب هذا العنصر العربى غيره ، مما كان فى البوتقة ، أم لم يغلب غيره فأنه فى كل حال لم يبق على حاله التى جاء بها إل مصر أول ما جاءها ، فكان ذلك تجدداً متصلا للكائن الذى نسميه « المصرى » أو الأمة التى نسميها «المصرية» .

. . .

ولا يهمن واهم أن الشقة بعيدة ، والصلة منقطعة ، والفواصل قائمة ، بين مصر المسلمة ، ومصر المسيحية ، أو بينهما وبين مصر الوثنية ، فى العهد الفرعونى السحيق ، أو فى المتأخر ، فيتخيل أو يخال أن العربية البدويه ، بنت الجزيرة ، نزلت مصر وقد صمت تلك العربية وصلبت واستحجرت فلم تصغ لشىء مما فى مصر ، ولا خالطت شيئا مما حوت

مصر ، ولا أخذت من شيء بمصر ، وانما أفنت ذلك كله إفناء ، وأبادته أبادة ، فبقى لها من مصر جو لم يعلق بنسيمه شذى قديم ، وأرض لم يمس ترابها موجود قديم ، وسماء لم يظل أديمها مصريا قديما ، فبدأت حياتها عربية ، جزرية ، غير مصرية فى شيء ... كلا ... فذلك كله ، بل بعضه القليل ، مما لا تقبله نواميس الوجود . . .

وما الحياة فى بيئة ما ، إلا وحدة لا تنفصم ، مهما تبد فى نظر السذج ، وأدراك الأغمار ، مقطعة مبتورة ، لا يتصل فيها سابق بلا حق ، ولا يرتبط منها آخر بأول . ومهما تحمل العصبية الهوجاء ، وفى أدراك معنى التدين وحقيقة الايمان ، وقوة أثر الاسلام على الاطمئنان إلى شيء من هذا والتمسك به . فإن هذا وشبهه لن ينفى حقائق الوجود الانسانى ، ونظم ذلك الكون الدنيوى ، الثابتة المطردة .

بل إننا لنقول هنا — وأن يكن ذلك استطرادا — إن هذه الصلة قائمة معقودة بين الأديان نفسها ، فى أسس إيمانها ، وأصول اعتقادها ، وقضايا تكليفها ، على نأى الدار وبعد الاقطار ، فما يباين فيها دين دينا ، ولا تحاد ملة ملة ، ولا تقاطع شرعة شرعة ، . . إنما هى ظواهر اجتماعية للحياة الانسانية ، تشترك فيها جميعا ، على اختلاف يسير أو كثير لا يغير الجوهر . . . وقد أصبحت تلك القضايا فى سير الحياة أهون من أن يوقف عندها ، ويجدد القول فيها لأنها من الأصول العامة فى ثقافة هذا العصر المستنير ،

. . .

وإذن فسندرس مصر المسلمة ، على أنها امتداد لمصر التى قبلها

على اختلاف لغتهما ، واختلاف دينهما ، وتغاير فنهما لأن الشخصية هى الأصل الثابت والمدار المستقر ، لكل هذه التدرجات والانتقالات . وهنا يكون كل ما نعرفه عن هذه الشخصية المصرية التى يتنفسها الوادى نسيما ، ويشربها نيلا ، ويخلدها أثارا ، ويتناقلها وراثة ، ويخلقها تراثا ، وتحميها على الدهر قوى ، لم تشب بشيب الزمن ، ولم تهن لتطاول العمر .. فكل ما نعرفه عن هذه الشخصية لمصر هو العدة والعتاد لنا فى دراسة الادب المصرى وتاريخه وقوتنا فى ذلك هى كل ما نتأثله من جهاد دارسى الآثار المصرية ، وكاشفى أسرار اللغة المصرية ، ومذيعى خفايا الحضارة المصرية ، العملية والعلمية والفنية ، ومرتقبى خطى الفن المصرى فى تلك الحقب ، ومميزى مظاهره ومعالمه المبينة له ؛ وكاتبى التاريخ المصرى كتابة علمية على المنهج الذى رنونا إليه ، فيما مضى من حديث ، عن التاريخ وتناوله .. كل أولئك مما تؤسس عليه دراسة هذا الأدب المصرى وتاريخه فى العصر الإسلامى .

وإذا ما كانت الدراسة الأدبية دفعاً لحاجة قومية معنوية ، وتوجيهاً مسدداً لحياة الأمة الفنية ؛ وكان أصحاب الجامعة أقوى الناس شعوراً بهذه الحاجة القومية المعنوية ، وأقدر الناس على التوجيه الرشيد لحياة أمتهم الفنية ؛ فقد حق على أصحاب الدراسات المصرية المختلفة (١) أ

---

(١) أذكر هنا اقتراحاً قديماً تحدثت فيه ودعوت إليه ، هو أن تتألف فى كلية الآداب بمصر جماعة متعاونة من أقسام الكلية المختلفة ، للعناية بالدراسات المصرية . كل قسم فى ناحيته التى يتفرغ لها ، لتكتمل العناية الدقيقة بالدراسة المصرية ، وتصير الكلمة أخيراً لهذا الاتجاه القومى الاول والألزم .

يتبادلوا فيما بينهم هذا التعاون الوثيق ، على تجلية الشخصية المصرية من جوانبها ومظاهرها المختلفة ، وفى عصورها المتطاولة ؛ وآخرها هذا العصر الإسلامى ، الذى امتد بنا إلى اليوم ، ويمتد بعد ذلك إلى ماشاء الله . . .

. . .

كذلك تقضى فكرة الإقليمية ، بأن يكون المنهج الصحيح للدراسة الأدبية ، قائماً على الصلة الوثقى ، بين أدوار الحياة فى البيئة الواحدة ؛ ولا يكون ذلك إلا بأن تستوثق الصلة ، بين أصحاب المصريات على تنوعها ؛ فيرتبط دارسو الآثار المصرية ، والتاريخ المصرى ، بدارسى الأدب المصرى وتاريخ الأدب المصرى فى هذا العهد الاسلامى ؛ .. ونلتزم نحن بأن نقيم ما نزاوله من تلك الدراسة على نتائج دراسة واسعة الآفاق ، بعيدة المدى ، تمس أعرق العصور قدماً ، وأبعدها عهداً ، لنقتبس ونستعير نتائج درسها ، وثمار عملها ، ونعتمد عليها ، فى فهم سير الزمن ، وتنقل الحياة ، تنقلا فنياً وغير فنى .

وقد يبدو للمستسهلين الذين يريدون لينالوا القمر وهم قعود — وما أكثرهم فينا — أن هذا الوصل المرجو بين دارسى المصريات كلها إنما هو لون من العنت ، نرهق به دارسى الأدب المصرى وتاريخه ، ونضع فى طريقهم صعاب العقبات ؛ على حين أن الأمر أيسر من ذلك وأهون فهذه دنيا وتلك دنيا ، وهؤلاء ناس ، وأولئك ناس . ودون ذا ويدرس الأدب المصرى . . .

فنقول لهم أما الصلة بين هذا كله مهما تتباعد فروعه فوثيقة وطيدة

بلاشك ، وأما العنت بملاحظها والتزامها فنعم — لكننا مهما يكن لهذا الإعنات والإرهاق ، من أثر يثقل خطانا ، ويؤخر أثمار دراستنا ، فلن ننسى أن هذه هى الحقيقة ولن ننسى أن هذا هو الواجب ، وأن يكن عبئه ثقيلا . . بل سنحمل أنفسنا على أشق من هذا ، ونطمع فى أن يكون لمصر من أبنائها من يتخصص فى درس جانب من حضارتها . وحياتها القديمة ، منذ عهدها الأول ، ليسخر معرفته المستفيضة لهذا الجانب فيتابع نماءه ، وامتداد الحياة به فى مصر الإسلامية إلى اليوم . . إيماناً منا بوثاقة الصلة ، ويقينا بقدسية هذا الواجب . ولا غرو ، فانما هى آمال أمة ، وأمانى شعب متحضر ، يدرك مشقة تكاليفها ويصمد فى صبر للوفاء بها .

. . .

سيقول المتعجلون من الناس : وماذا بقى لكم من العمل إذن ؟ مادام هذا الأساس البعيد الغور ، لم يوضع بعد ، ولستم أنتم الذين تضعونه ؟!! فتربصوا حتى يفرغ أصحاب الآثار والتاريخ القديم ، من الدرس الأوفى لأدب مصر الأول ؛ ثم تقدموا أنتم بعدها ، لدراسة أدب مصر الاسلامى المتأخر . . ؟

ونقول لهؤلاء ، لا بأس علينا فى شىء من هذا ، ماقضت به سلامة المنهج ، وتسديد الخطة . . فما يرضينا قط أن نزعم أننا نقول ونعيد ، فى أدب مصر المسلمة ، لنزعم أننا ندرسه . . وإنما الذى يعنينا ، أن تسدد خطى هذه الأمة فى حياتها العاملة ؛ ويعنينا أن يوفق عملها فى سائر ميادين الحياة الأخرى وسبل الوجود : ولو كان ذلك التسديد

والتوفيق ، لايكون ثمنه إلا أعز ما نملك ، وآثر ما نؤثر ، تنتزعه منا أمتنا انتزاعا . . بل أحبب إلينا أن نسبق طلبها ، فنؤثرها به ، ونعجل اليها ما نريد فكيف بما دون ذلك من ادعاء درس ، وانتحال بحث .

. . .

على أنا نعود فنقول لهؤلاء المتعجلين ، ربما لاننتظر الى أن ينهض أصحاب الآثار المصرية ، والتاريخ القديم بتمكيننا من آداب هذا العهد ، وتيسير درسها ، أو بإتمام هذا الدرس ، وتقديم ثماره لنا ، لأنا نعرف أنهم إلى اليوم قد أصابوا — أو بالأحرى أصاب الغربيون لهم — غير قليل من المعارف المتصلة بالشئون المصرية ، ودوّنوا فيه مقررات غير يسيرة ولا تافهة . . كما أن أولئك الغربيين قد فرغوا لدراسات طيبة فى حياة الفنون المصرية الأخرى ، سوى فن القول ، وهى مما يعين إعانة جلية على دراسة الفن الأدبى . . . وبالنظر فى كل أولئك مما أتمه أصحاب الآثار ، غربيين أو شرقيين ، نستطيع — ولو مؤقتاً — الاعتماد على نتائجه ، مادمنا إنما نقوم اليوم أولاً بالنظر فيما حول الأدب المصرى من دراسات . . أو فيما بعد ذلك من دراسة النصوص الادبية المصرية نفسها بعد جمعها وتمحيصها وتحقيقها على نحو ما بينا قريبا . وفى هاتين الناحيتين : — ماحول الأدب ؛ والنصوص الأدبية — قد يوفى بنا ، مايقدم أصحاب هذه الدراسات القديمة لمصر من حقائق ، على شىء مما يتمثله المنهج المحرر . . أولا أقل من أن نقبله مؤقتاً . معنيين بأن نجاهدهم مع هذا ، على أن يضعوا بين يدينا المواد التى لابد من أن نظفر بها أولا ، قبل أن نجرؤ على الحديث عن تاريخ الأدب المصرى ، وتلك المواد هى :

(ا) مجموعة أو مجموعات تنتظم جميع ما وصلت إليه أيديهم ، من نصوص أدبية مصرية، للعصور المختلفة ، فى أغراضها وفنونها المتعددة على ماهو معروف فى فنون الشعر والنثر ، وأن تترجم تلك المجموعة أو المجموعات ، عن أصولها المصرية القديمة ، ترجمة دقيقة ، لينظر فيها أصحاب الأدب منا نظرة متذوقة فاحصة ناقدة ، تكفى لتبين خصائصها بأدق وأعمق وأهدأ ، مما نظر به اليها الغربيون فى هذه النصوص ، ويحكم فيها أصحاب الأدب منا كذلك أحكاماً أدبية وتاريخية أصح وأصدق وأضبط ، مما حكم بها عليه هؤلاء الغربيون ، لأنهم أجانب عن ماضيها وحاضرها وذوقها ، على حين ورثنا نحن ذلك كله ، دماً جاريا ، وحساً نابضاً ، وشهدناه واقعاً شاخصاً ، نغدو بين معالمه ونروح .

(ب) دراسة فاحصة عميقة للفنون المصرية الأخرى ، عدا هذا الفن القولى ، بحيث تتكشف لنا حياة هذه الفنون وتاريخها تكشفا ، يجلى لنا ما امتازت به بين فنون الأمم من طابع وخاصة ، تحدث عن الروح المصرية والمزاج المصرى ، والشخصية المصرية ، فنستطيع بهديها فهم هذا الطابع ، وتلك المميزات فى فننا الأدبى ، الذى نستشف تأثير قديمه التالد ، فى حديثه العربى الاسلامى التالى

(ح) دراسة صحيحة المنهج ، كاملة الأجزاء ، عن نواحى الحياة المصرية الأخرى ، ومظاهرها المختلفة من اجتماعية واعتقادية وغيرها ، ليمدنا ذلك بالمعنوية اللازمة لفهم هذا الأدب الذى هو أحد تلك المظاهر الحيوية .. ولعلنا نحن المصريين من أحسن الناس حظا فى هذا الميدان إذ خلف أسلافنا ماخلفوا من معالم حياتهم ، فكفت آثارهم لتصويرها أدق تصوير وأصدقه .

وجلي أن التاريخ بمعناه العام يكون قد درس أصح الدراسة حينما يمكننا الظفر بهذه الصور المنتقاة ، فلا ضرورة للفت النظر إلى الفراغ من درسه أولا .

تلك صورة عامة لما سنجاهد أصحاب المصريات على أن يضعوه بين يدينا وفى لغتنا حتى تكون دراستنا للأدب المصرى الاسلامى وتاريخه ، قد أقيمت على أساس صحيح ، ومنهج سليم . . وليس ما نزاوله فيها قبل اكتمال هذه النواحى إلا عملا مؤقتاً ، وضرورة يلازمنا معها الشعور القوى بالنقص ، والطموح الجاد إلى الاكتمال . . غير قانعين بما يقدم الآن أصحاب المصريات مؤقتاً من معلومات عن الحياة والفن المصرى .

. . .

بهذا لا ننتظر متعطلين . ولا نمضى راضين ، مخلدين الى الراحة مكتفين بما لدينا ، بل سنقدر كلما قررنا قضية ، أو اطمأننا إلى فكرة فى هذه الدراسة الأدبية ، اننا لا نقول الكلمة الاخيرة ، ولا نقطع الطريق ، على عمل مستمر التكامل ، متجدد الرقى ، يفرغ فيه الدارس لهذا الادب المصرى وتاريخه . بعد أن تتوطد الأسس المتينة له ، من الخبرة الوافية الكاملة ، بأدب مصر ، فى عصوره الغابرة ، التى سلك فيها ، ذلك الادب سبيله ، فى أثناء الدهر ، ومسارب الزمن ، ومضت الشخصية المصرية المخلدة ، تتقدم به على الأجيال ، متأثرة بمختلف ما تلقى عليها الايام ، من ظلال ، جنسية وسياسية واجتماعية ، من بينها ظل الصلة العربية ، والراية الاسلامية ، فى البضعة عشر قرنا الأخيرة

من أجل ذلك لن نكف عن أن نذكر أنفسنا ، ولا عن أن نذكر كل متصل بأدب هذا العصر ، بأن الاساس الذى يقام عليه بناء هذا البحث ، انما هو مصرى مصرى ، قديم قديم ، يتصل بعمل أصحاب المصريات ، قبل أن يتصل بأى شىء آخر ، وأكثر مما يتصل بأى شىء آخر ، ويستعين بمعارفهم ، قبل أن يستعين بغيرها . . ولن تقال كلمة مؤرخة فى وصف الحياة الادبية لمصر الاسلامية ، على نحو ما نرجوه من الدرس الصادق لتاريخ الادب ، إلا بعد أن نكون قد ظفرنا ، بالجهد المفرد للمصريين أنفسهم ، وبذوق المصريين ذاتهم ، وبجدهم هم ، ويقظتهم هم لذواتهم ، فى ماضى حياتهم ، وفنونهم ، وآدابهم بحيث تكون فى يد كل مزاول لهذا الادب المصرى الاسلامى ، أكبر وأكمل مجموعة ، من المنشآت الادبية للعصور المصرية السابقة كلها يحيا فيها حينا إلى جانب حياته فى مصر الحديثة ، فيرهف بذلك حسه ويدق تذوقه ، لهذا الادب ، ويظفر بمفاتيح اغلاقه ، ومصابيح سراديبه ، من ماض بعيد ، قد تأثر به ولا شك ، حاضرنا القريب

. . .

ذلك شعورنا حين نتقدم ولا ننتظر ، وهذه أمانينا حين نصيب شيئاً من هذا الدرس ، ولما يتوطد لنا ما نبغى من أساس بعد . فإن أبى ناس ، إلا أن يعتبرونا فيما نتعجل من ذلك ، قبل الظفر بالاصول الكاملة ، دارسين مؤقتين ، أو عاملين فى دور الانتقال ، ومرحلة الإعداد لا أكثر ولا أقل فلهم ذلك ، وما جاروا . . ونحن أطيب نفسا ، بأجف من هذا الوصف ، وأقسى من هذا النعت . . تؤثر

ذلك ، على أن نكذب أنفسنا وقومنا ، والأجيال الخالفه ، فنخفى الحقيقة الصحيحة فى المنهج السليم ، ونزعم لأنفسنا الكفاية الدارسة ، والمقدرة الموفورة ، والاستاذية الجليلة للادب المصرى ، وتاريخه

وآمل أن تطيب بذلك نفوسكم معى ، وأن يصح إيثاركم للحقيقة الجاهرة — ولو آلمت — على الوهم الخادع والادعاء الزائف ولو راج وأجدى ، أو هوّش ودوّى

خطة وادعة لدعوة مغيرة

تلك هى الوقفة الخاصة التى رغبنا فى أن نلفت بها النظر الى أثر الاقليمية على المنهج ، فنكون بالقولة العامة فى درس الادب وتاريخه ، وباللفتة الخاصة ، الى أثر الاقليمية على هذا الدرس ، قد أشرنا إلى الخطوط الكبرى ، والمعالم العامة فى تقسيم هذا الدرس وتوزيعه ، ووضع منهجه على الطريقة ، التى يبدو لنا أنها الصواب ، ونرجو أن تؤمن المعاهد الأدبية معنا بصوابها فتأخذ بها فيما تزاول من درس ، غير متأثرة فى ذلك ، بألف قديم أو اطمئنان إلى ماض متبع .

. . .

وما نريد أن يكون لهذه الدعوة ، ضجيج خلاف ، ولا ضوضاء جدال ، مما تأيف به نوايا من يحاولون الاصلاح فيفسدون به جهدهم ، ويفقدون قواهم فى هذا الخلاف ، وذياك الجدال ويخلقون بسلوكهم غير الصائب ، أعداء لتفكيرهم الصائب ، لانهم ينظرون إلى الشخوص والذوات ، مثل ما ينظرون الى الافكار والآراء ، بل ربما كانوا إلى ذواتهم أكثر انتباها وأشد عناية . . فيحملهم ذلك الانتباه ،

وتدفعهم الرغبات النفسية الخفية فيهم ، أو المقصودة لهم ، على أعمال وأقوال ليست من خير أفكارهم وآرائهم فى شىء ، وإن كانت من حيث ما تحدث من دوى ، وما تثير من صخب ، ذات أثر فعال فى سير أسمائهم ، واشتهار أمرهم . حتى ليحملهم ذلك على التحرش بأشياء ، والتهجم على أشياء ، لا تتصل بما هم فيه ، أو لا أقل من أنها لا تتصل به اتصالا قويا قريبا ، ولا يتوقف عليها شىء من اثباته وتقريره ، فيهيجون بذلك النفوس ، ويوغرون الصدور ويثيرون أصحاب المنافع والمصالح . أو ذوى العصبية واللدد ، وكثير منهم تعوزه الدقة ، المفرقة بين ماهو من صميم الرأى وما هو من حواشيه وأطرافه ، فيندفع أولئك المصلحون المتعقبون أو الشعبيون المجادلون الى ضرب من الخلط المشوش ينتهى بهم الى رفض الصحيح المقبول ، فى سبيل ابعاد الباطل المردود ؛ ولا تبعة عليهم ، لأن الخاصة أصحاب الفكرة ، هم الذين أهاجوا مثل هؤلاء فأفقدوهم التوازن الفكرى ، وبلبلوا سلامهم النفسى ، وقد كانوا أهلا لأن يقارفوا مثل هذا الخطأ المخلط وهم هادئون ، فكيف وقد أهيجت حفيظتهم ، وهوجمت مسلماتهم ومقدساتهم !!

فى سبيل مجانبة هذا الخطأ وملافاة هذه المضار أحرص دائما على أن ألقى القول فى هدأة وحيطة ، مثبتا الأقل ، حين يحق لى اثبات الأكثر ، جاعلا المؤكد المسلم فى صورة المحتمل المردود ، مستمسكا بما لا يجرىء فيه تشاح ، ولا يهون له انكار ، وقد أوفت بى تلك الخطة الوادعة ، على ما رأينا من نتائج ، بشأن هذه الاقليمية ، التى تقوم على تأثير البيئة المادية بفطرتها ، والمعنوية بعواملها المختلفة ، ورأينا مصر إقليما تميزت بيئته وتفردت ، فأصبحت دراسة مصر وحدها ، هى الوجهة

الصحيحة فى تقسيم درس الأدب وتاريخه ، ووجب على هذا الأساس أن نعدل ويعدل الدارسون ، عن تلك القسمة الزمانية التى لا ترتد الى أصل معقول ، ولا تقوم على أساس مفهوم ، لأن هذه الدولات وتلك الحكومات ، بل الحياة السياسية كلها ، ليست إلا خيطا واحداً فى نسيج الحياة ، وما هى إلا عامل فرد ، فى العوامل التى تأتلف منها البيئة المعنوية ، فكيف يحكم عامل واحد من عوامل متعددة ، تتألف من جملتها البيئة المعنوية ، فى حياة الكائنات المعرضة لتأثير هذه البيئة بمؤثراتها المتعددة ، وكيف يهمل ماعدا هذا العامل السياسى من الاقتصاد والاعتقاد ، بل كيف يهمل ما قبل ذلك ، كله من أساس وطيد ، فطرى ، ثابت ، هو البيئة المادية والطبعية الفعالة ! !

• • •

ولقد استبان من كل مامضى ، من ألوان الخلف التى عرضنا لابطالها . أن هذه الوحدة الأدبية المدعاة ، التى ينظرون اليها مجتمعة مستمسكة ، لتؤرخ فى عصور مختلفة هى وحدة لا وجود لها ، ولا وجه لادعائها ، واستبان مع القصد فى الدعاوى ، والتريث فى الإثبات أن الإقليمية ، وأثر البيئة أصل على يصلح لان يعتمد فى درس الأدب وتأريخه ، فيرد ذلك الدرس الى وضع مستقر ، ويهيىء له تقسيما تتميز فيه الأقسام ، تميزا لن ينكر ولن يجحد ، فلا محل بعد اليوم للقول بأننا ندرس أدباً أموياً أو عباسيا ، أو ما بعد سقوط بغداد أو قبل سقوطها ، وما إلى ذلك من فواصل مزعومة لا تقوم على أساس مؤثر فى حياة هذه الآداب مغير لها تغييرا يفهمه البحث الصحيح ، أو يحترمه .

معالم المنهج

وقد رأينا من النظرة العامة ، فى درس تاريخ الأدب على مافهم المحدثون منه ، ما ينبغى أن يكون وجه الرأى فى تقسيم هذه الدراسة وتنسيقها — أنظر ص ٨٤ — ٩٠ — متبعين فى بيان هذا الذى ينبغى ، تلك الخطة التى سميناها الخطة الوادعة غير المتهجمة ، ولو أنها منكرة ، مبطلة ، مغيرة . ثم رأينا أثر الاقليمية الخاص على منهج الدراسة ، إذ تقضى مراعاة الاقليمية بربط دراسة العروبة فى كل بيئة خاصة ، بالرجوع الى ماضى هذه البيئة وملاحظة صلتها المادية والمعنوية بتلك العروبة فى جزيرتها .. ثم بها بعد هجرتها عن الجزيرة إلى مواطنها الجديدة . وكيف جرى الأمر بينها وبين مافى تلك البيئة من المعنويات فى الاتصال والاختلاط ، وكيف تبادل الوافد والمتوطن ، التأثر والتأثير .

وعلى هدى هذه الحقائق التى نعتقد أننا فرغنا من درسها ونعتقد أن القارى قد انتهى معنا إلى التسليم بها ، غير مغالط ولا مورط . على هدى هذه الحقائق نستطيع أن نشير إلى المعالم الكبرى لمنهج الدراسة الأدبية ، بل لعلنا بعد الذى أنفذنا من بيان ، نستطيع وضع منهج دراسة العروبة وآدابها فى مقارها المختلفة ، حين نصف دراستها فى موطن من تلك المواطن هو مصر . . نعم نستطيع ذلك فى طمأنينة ، لأن من هذه الدراسة للعروبة ، ما تشترك فيه الاقطار التى حلت فيها العربية جمعاء ؛ ثم منها ما تتشابه نظمه ، مادامت تحتكم فى تلك النظم ، فكرة الاقليمية ، ويصدق الايمان بتأثير البيئة الذى

يقضى به العلم ، وتثبته التجربة ، وتراه فى الفنون أجلى وأوضح وأفعل

ومن هنا سيكون بياننا لمنهج درس الأدب المصرى وتاريخه بياناً صالحاً للانتفاع به فى غير مصر من منازل العربيـة ، واليك المعالم الكبرى لهذا المنهج

— ١ —

العربية فى جزيرتها درس مشترك :

هذه العربية فى مهدها الاول أصل مشترك بين الامم التى خالطها العرب فيما بعد ، وشاطروا فى دمائها وحياتها ، فلابد لكل أمة من تلك الامم ، التى عرفت هاتيك العروبة ، أن تعرف هذا العنصر من عناصر وجودها ، وتمنحه من العناية الدارسة ، ما لا بد منه لفهم عنصر جوهرى مما يأتلف منه كيانها .. ومن هنا تكون الجزيرة من حيث هى بيئة مادية لهذه العربية قد تأثرت بها . كما تأثر بها كل كائن عاش فيها ، تكون هذه الجزيرة موضوع الدرس المادى المختلف ، من طبيعة الأرض والمناخ ، وما تقلبت به العهود المختلفة ، وأدوار التاريخ المتتابعة ، فتدرس جغرافياً وجيولوجياً ، وجوياً ، وما إلى ذلك من دراسة عالمية حديثة ، للاقاليم .

وكذلك يكون الشعب العربى الذى استقر بها ، منذ الدهر الأول موضوعا مشتركا . . فيجب أن يدرس تلك الدراسة العلمية الدقيقة للشعوب من حيث خصائصة ومزاياه ، وصـــلاته وقراباته وماضيه السحيق ، فى عصور الحياة الغابرة . . الخ

ثم كذلك الامرة البيئة المعنوية ، لهذه الجزيرة ، من جوانبها المختلفة ، فى نظام الحياة بها : فى الفرد والاسرة والجماعة ، قبيلة أو

شعبا أو أوسع من ذلك ، فى الناحية النظامية للحكم وما اليه . . والاعتقادية فى الدين وما يتصل به .. والفيئة فى ألوانها المختلفة ، من غير الفن القولى أو القولى ... والعملية فى أوضاعها المتعددة ، من اقتصادية وما اليها . تدرس نواحى هذه البيئة المعنوية كافة كما يدرس الشعب ، والبيئة المادية التى حل فيها

ثم تدرس اللغة العربية فى هذه الجزيرة على تباعد الايام ، وتطاول الاعصر ، واختلاف الدولات ، كما يدرس فنها الكلامى تدرس أصولها ، وقوانينها . ولهجاتها ، وعلاقاتها بغيرها ، وعلومها اللغوية المختلفة . على أن يتخذ لذلك كله من الاهمية كل ماتسلح به إنسان اليوم الناهض الطامح ، فلا تقف تلك الدراسات المادية الطبيعية والجنسية البشرية ، أو اللغوية الادبية ، عند المقررات المتداولة والمسلمات المتناقلة . ولا تكتفى بالخبر المنقول والحديث المردد . . وإنما تتخذ الأهبة لذلك من الحفر والتنقيب ، والبحث والتحليل ، والجمع والتنضيد ، وتجرد لذلك كله البعوث والجماعات والهيئات وتزود بكل مايلزم لذلك من عدة وعتاد فى غير ضنانة ولا تقتير . . ولا استعظام واستكثار

. . .

واذا كان ذلك الدرس المبتغى للجزيرة ومن فيها وما فيها (١)

---

(١) بينت فى شرح منهج التفسير الأدبى الذى أعمل فى الجامعة على تأصيله، اننا فى دراسة ما حول القرآن ، لابد لنا من دراسة البيئة المادية التى ظهر فيها القرآن وعاش ، وفيها جمع وكتب وقرىء وحفظ ، وخاطب أهلها أول من خاطب ؛ واليهم ألقى رسالته لينهضوا بأدائها . وإبلاغها شعوب الدنيا . =

موضوعا مشتركا بين الأمم التى عرفت العروبة ، بما دخل على وجودها منها ، فسيكون تعاونها على هذا الدرس عاملا مهيئاً لنجاحه ، مقوياً للأمل المبتغى منه . فهذه مصر ، وذاك هو الشام والعراق ، والمغرب والمشرق ، كل أولئك يعنيهم لكى يفهموا أنفسهم ، أن يعرفوا هذه العروبة التى جاءتهم ، معرفة عالمة طامحة ؛ فليتعاونوا فى ذلك كله . . يجردون البعوث المشتركة ويقدمون الدارسين المتساندين المتضافرين ، ويؤلفون الجماعات العلمية الكبرى ، ويبـــذلون النفقات المشتركة ، ويعقدون لذلك المؤتمرات الدورية ، فى الجزيرة أو فى غيرها من أقطارهم ، ليعرفوا عملهم فى هذا السبيل ، ويسددوا خطاهم الى غايته . وتلك أنواع للارتباط والاتصال فيما بينهم ، ليست بالمفتعلة ولا بالمصطنعة ، بل هم فيها كالأخوة يجتمعون حول سرير أبيهم ، أو مائدته ؛ حين تفرق بينهم واتجاهات الحياة وواجبات العمل ، وتنوع المشرب ، وتعدد الأهداف

وأحسب أن درس الجزيرة على هـذا النحو ، ليس بالهين اليسير ، ولا القصير القريب ، تفرغ منه تلك الأمم فى جيل واحد ، أو بعض حياة الجيل ، بل هو — بقدر ما نأمل له من كمال — عمل أجيال وطبقات ، وفيه

= وذكرت أوجه لزوم المعرفة الكاملة بهذه البيئة المادية . . وأن كل مايتصل بالحياة المادية وسائل ضرورية لفهم هذا القرآن العربى . . ومع هذا مايتصل بالبيئة المعنوية بكل ماتتسع له هذه الكلمة . . فكل ماتقوم به الحياة الانسانية لهذه العروبة وسائل ضرورية كذلك لفهم هذا القرآن العربى المبين — اهـ بتصرف من دائرة المعارف الاسلامية ، الطبعة العربية مجلد ٥ ص ٣٦٩ وما بعدها . . مادة تفسير . لكاتب هذا — وكذلك يتبين لنا أننا ملزمون بدراسة العروبة فى هذه الجزيرة لأسباب أدبية ودينية معاً . .

متسع ومنفسح لتآزر القوى وتساند الجهود

وسيكون كل إقليم من هذه الاقاليم ، بفضل ما تمتاز به بيئته الخاصة عاملا ذا أثر معين فى فهم جانب من جوانب هذه العروبة ، هو بنفسه أقدر عليه وأبصر به .

وتلك هى الخطوة الاولى من الدراسة الأدبية والتاريخية للأدب الاقليمى ، مصرياً أو غير مصرى . . . وكل ما يزاول منه ، أو قل مايكتفى به الآن ، فى مدارس مصر أو غيرها ، من درس العصر الجاهلى ليس إلا شيئا مؤقتا ، وقليلا وضئيلا ، لن يغنى عن كثير جليل ، صحت النية على تحقيقه وألزم به المنهج الصحيح

وبهذا يعد درس العربية فى جزيرتها أول ماندرس من هذا الأدب المصرى ، وعماداً من أعمدة رواقه .

* * *

ثم إذا ما اشتركت مصر فى هذه الدراسة العامة مع بنات تلك الأم الاولى ، فأنها تعود بعد ذلك لتدرس من هذه الجزيرة نواحى صلتها الخاصة بها ، وأن لها بالجزيرة العربية من هذه الصلات لكثيراً وكثيراً ، فقد ساهمتها على شاطىء البحر الاحمر وضاق ما بينهما فى الجنوب حتى كادتا تتواصلان ، حين اتصل ما بينهما فعلا فى الشمال ، فكان الشعب المصرى الأقدم ذا صلة بهذه الجزيرة وثيقة — مهما يختلف الرأى فى أن الذين جاءوا مصر من هذه الأنحاء قد جاءوا من الشمال ، أو عن طريق الجنوب — . وقد اتصل ما بينهما فى نواحى عدة من نواحى الاتصال التى تعقدها بينهما أواصر قوية : فى أساطير مشتركة ،

وعقائد مشتركة ، ومنافع مشتركة ، ومعارف مشتركة . . وغير ذلك من الشركة . مما يجعل مصر تشعر يوم تصحح أسلوب دراستها ، أن لها بالبحر الأحمر وحضارته صلة كتلك التى تعرفها لنفسها بالبحر الأبيض . . وسنشير إلى ذلك فيما يلى . .

وكذلك يتم درس الجزيرة العربية بالنظر فيما يصل مصر بها ، من صلات مختلفة ، فى عصور وعهود متعددة ؛ وتكون دراسة هذه العروبة فى جزيرتها . مادة من مواد فهم المصرية فى حقيقتها ؛ وواجباً تفرضه إقليمية الأدب لغير واحد من الأسباب على ما رأينا .

— ٢ —

عليكم بيئتكم

وإذ كانت الجزيرة منزل العربية الأول ، ومنها خرجت إلى غيرها من منازل ومواطن جديدة ، فالخطوة التالية لدرس الجزيرة هى درس الأوطان الجديدة العربية ، أو درس عربية المواطن الجديدة .

والبيئة الطبيعية ، كما كررنا ، بوتقة الدهر ، ومختبر الزمن ، يجرى فيها تجاربه الإلهية ، ويطبع الحياة بنتائج هذه التجارب . فتسجلها الأحداث ، وتخلدها الوقائع .. وما التاريخ ، كما بينا ، إلا الوصف الصحيح الدقيق لهذا كله ، وتاريخ الأدب بعض هذا الوصف الصحيح الدقيق ، فالواقع الشاهد يرد الدرس إلى هذه الأصول البيئية الواضحة ويجعل الأخذ بهذه الفكرة فى البيئة ، كما قلنا ، قضية العلم فى تاريخ الأدب .

وإذا كان الدرس للبيئة ، فأصحابها هم أحق بها وأهلها ، يمارسون من ذلك ما هو فى أنفسهم ، ومنهم ، ولهم ، وهم أهدى إليه سبيلا ، وأقوم فيه قيلا . . .

ولو كانت الفطرة قد خالفت نواميسها فى حياة هذه العروبة وحدها ، وجعلت من منازلها الفسيحة ، ومساكنها المتباعدة وطناً واحداً استوى فيه الشرقى والغربى ، والسهلى والجبلى ، والزراعى والصناعى ، فقد كان من الصواب أن تقسم أجزاء هذا الوطن الموحد

— رغم قوانين الكون، وسنن الوجود — إلى قطع وأقسام، يقوم كل قبيل من الدارسين، بفحص قسم منها والتوافر المتخصص على درسه وتفهمه ... ولكنك لن تجد لسنة الله تبديلا، ولن تجد لسنة الله تحويلا. وما شذت العربية فى حياتها عما خضعت لقهره وانقادت لفعله، لغى الدنيا، وشعوب العالم، فخصصتها المخصصات الأقليمية واحتكمت فيها عوامل البيئة المادية، فميزت فيها أقساماً تحتاج إلى الدراسة المفردة، وهى التى نريد ليقوم بها كل قوم فى خاصتهم، حين ندعوهم « **عليكم بيئتكم** ».

* * *

البيئة الطبعية بحقيقتها، وكما سمعت من وصفها بأنها « بوتقة الدهر ومختبر الزمن » تمزج العناصر التى تلتقى بها الحياة فيها، أوثق مزج وتخرج منها ذلك الكائن الذى ألفت بين أجزائه قوى فوق كل قوة ومقدرة تحتكم فى سائر القدر ... وبهذه البيئة الطبيعية لها توجه البيئة المعنوية إلى جانب موجهاتها الأخرى. فليس يصح مع هذا كله، أن يحاول دارس أدب أو غيره، أن يفصم عرى أحكمت وثاقتها يد القدر، فيبتر ماضياً عن حاضر، أو يصنع مستقبلا بارئاً منهما! وهكذا ندرك فى جلاء أن أمس واليوم قطعتان من الزمن، وأن هذا الغد بقيتهما وتمامهما، لو كان الزمن شيئاً يقطع أو يتصور مجزأ .. ولكنه منيع عن هذا، حتى فى الذهن.

وليس لدارس أن يقطع يومه عن أمسه، ويبدأ درسه وفهمه، من حيث يريد هو ويحتكم!! بل عليه أن يقدر ما أسلفنا من أثر

نواميس الحياة فى الكائنات التى تنتظمها بيئة واحدة ، وتربط بينها أواصر فطرية من صنع يد الله ... وأصحاب الفنون والآداب ، — كما ذكرنا — أحوج الناس إلى تقدير هذا كله ؛ لأن فنونهم وآدابهم أشد تأثراً بذلك ، بل هى مظهره الجلى البين ، وإذن تدرس البيئة منذ عرف لها تاريخ على نحو ما بينا من ذلك فى بحث أثر الاقليمية فى المنهج ، وما يتبع فى دراسة مصر بخاصة . وعلى مثل ذلك تدرس البيئات الأخرى كلها — أنظر ص ١٠ وما بعدها —

فيدرس أصحاب الأدب فى مصر بيئتهم ، ويدرس أصحاب الأدب فى الشام ، وفى المغرب ، وفى العراق تلك البيئات ، (١) . مقدرين الخصائص الفطرية التى حبتها الطبيعة إياها ، ومازتها بها عن سواها ، فتأثر بها قاطنوها ، وتأثرت جوانب حياتهم المعنوية بتلك المزايا . . ثم بغيرها من جوار ، ونقلة ، واتصال ، وأخذ ووراثة . إلى آخر تلك المؤثرات على نواحى النشاط المعنوية للجماعة الانسانية .. ويكون ماعرفه أصحاب أولئك البيئات سبيلا لمعرفتهم ، ما نال حياة العربية فى منزلها بينهم ، حين طرأت على ذلك القديم المستقر والميراث المتلق .

وسيدرك هؤلاء الأدباء بهذا الدرس : أن اللغة من حيث هى مادة القول ، قد أخذت من لغات الحديث ولهجاته التى خالطتها ؛ وكان لها معها صراع

---

(١) وفى تقسيم هذه البيئات وتمييزها تكون الكلمة للعلم الطبيعى يحددها ويقسمها ؛ فقد يضم بعضها إلى بعض ، ويفصل بعضها عن بعض وما التزم أنا من ذلك كله الا أن مصر بيئة خاصة لها تميز الواضح

يختلف فى كل موطن ومنزل عنه فى غيره من المواطن والمنازل ، باختلاف القوى الحيوية التى تسير حياة هذه الجماعة ، إذ كانت معنوية البيئة المغربية غير معنويه البيئة العراقية والمصرية الخ .

وسيرون أن العربية بذلك قد ماتت فيها كلمات وأهملت فيها كلمات أخرى ، وحببت إلى المتكلمين . كلمات غير أولئك وأن العربية فى مصر قد تخلفت عنها بفعل الزمن ونواميس الحياة اللغوية لغة عامية خاصة ، وسيدرك هؤلاء الأدباء أن أصحاب العربية أنفسهم قد اختلفت قبائلهم وأنسابهم ، فيما نزلوه من تلك المنازل فكانت فى مصر قبائل ، وفى الشام قبائل ، وفى المغرب قبائل ، فغلبت بهذه الكثره والقلة لهجات من العربيه دون لهجات ، وكلمات دون كلمات . إذ تبعت أهلها وناطقيها طبعا.

وسيدرك هؤلاء الأدباء حين يدرسون بيئتهم الخاصة ، أن أساليب بعينها قد تقبلها ذوق الأقليم دون أساليب ، وأن فنوناً من للقول الأدبى شعره ونثره . قد راجت دون فنون أخرى من ذلك ، حين تبع هذا ، ولا مراء ، مزاج أهل الاقليم ، وأصحاب البيئة سواء فى ذلك الأوائل الأصليون ، أو من سكنوا تلك البيئة من الوافدين الطراء عليهم .

وسيكون أهل كل بيئة أقدر — كما بينا — على تتبع ذلك وتلمسه واستشفاف الخفى الغامض منه ، حين يحتاج تفطنه الى قوة نفسية ، ومقدرة وجدانية ، هم ورثتها وحملتها .

وسيدرك هؤلاء الأدباء حين يدرسون منطقتهم ، فى العصر الاسلامى نفسه ، أن نصيبها من النشاط الدينى والعقلى والأدبى فى الاسلام ، قد تفاوت — ولا بد — عن نصيب غيرها من الولايات أو الأقاليم الأسلامية

الأخرى ، إذ كانت تلك حاضرة دولة عصراً ما ، وتلك لم تكن ؛ وكانت هذه جارة قريبة لمستقر السلطان والحكم ، حين كانت تلك جارة بعيدة نائية ، وهكذا

وما أن نتكر أن لهذه الحضار الإسلامية أنماطاً موحدة ، وأصولا عامة كبرى ، قد تأثرت بها تلك البيئات المتعددة المتباعدة تأثرا متشابها ومتحداً ، يمكن من تعميم القول ، وإطلاق الحكم . ولكن ذلك هو ما لا نقبل أن يكون مصدر انخداع ، يصرفنا عن إدراك الرائد الخاص الذى تفردت به كل بيئة تفردا ، ليس هيناً ولا يسيراً فى حساب البحث الدقيق والنظر المتمعن

* * *

وبالذى وصفنا من دراسة كل قبيل لموطنهم ، مع ما تلتقى فيه تلك المواطن من تأثر بالأصول العامة المشتركة ، يمكن أن يكون بين أصحاب البيئات المختلفة ألوان من التعاون والتفاهم ، وتبادل الفوائد الثقافية والنتائج الدراسية ، تبادلا تتوثق به الصلة بين تلك الأقطار المتجاورة والجماعات المتحابة ، على أساس من الفهم الصحيح للواقع ، لا عن ضرب من الدعوة الساذجة لصلة مبهمة متوسعة

ومن هنا يمكن أن تكون الموضوعات الأنسانية ، والمعانى الأدبية العامة ، التى عرفها الأدب العربى فى تلك المنازل المتعددة ، موضع الدراسة المتعاونة بين أصحاب البيئات العربية الأسلامية المختلفة ؛ يبينها كل منهم ، ويتحدث بها من عرفها ، الى غيره من بنى عمومته فيفهم عنه ويستفيد بدرسه .

وستكون الفنون العربية الخاصة التى امتاز بها الذوق العربى الشرقى ، وآثرها الوجدان العربى ، ونمتها الطبيعة الشرقية ، وحمتها أصول الحضارة الشرقية ؛ وامتاز بهذا كله الشرق العربى ، عن غيره من الغرب أو الشرق غير العربى ، ستكون مثل هذه الفنون وموضوعاتها مادة درس ، يتعاون فيه الأدباء وأصحاب هذه اللغة على اختلاف دورهم . ويتناقلون بينهم نتائجه وثمراته .

وسيكون أعلام الأدب الذين اتصلوا بأكثر من بيئة ، وتجاوبوا مع أكثر من إقليم — وهم غير قليلين فى رجال هذا الأدب — سيكونون موضوع درس مشترك الى حد ما ، يحسن فيه التآزر ، وتتوزعه أقاليم . فأبو نواس عراقى اتصل بمصر ، وأبو تمام ذو صلة بمصر وقد اتصل بغيرها من البيئات ، والمتنبى نزيل مصر قد أشأم وأعرق ... ومن هنا يكون أولئك الرجال وأمثالهم موضوع درس بين أصحاب هذه البيئات ، يستكملون بتوزيعه فهم هؤلاء الرجال ، وتحليل فنهم ، أولى من أن يتحدثوا جميعا عنهم حديثاً معاداً مكرراً ، يعيد فيه آخرهم ما أبداه الأول ، وردده قبله غير واحد .

* * *

وعلى هذا تكون فكرة الإقليمية فى الأدب عاملا منظما لتوزيع الدرس ، وتقاسمه بين الدارسين ، فتتحد بذلك الدراسة الأدبية للتراث العربى ، وتعمق نظرات دارسيها ؛ كما ستكون فكرة البيئة دافعة الى تلمس النواحى المشتركة من قرب أو بعد ، بين أولئك الأقربين الذين تمتهم قرابات قريبة ، ووصلتهم بالدنيا وشائج عامة ، فيتعاونون تعاوناً مجدياً ، يخصص كل نشاط بعمل ؛ لا تعاوناً مكرراً . يتواردون فيه على

الغرض الواحد ، ويرمون به الهدف الواحد ؛ فيضيعون من القوى ما كان خليقاً بأن يوجه الى جانب آخر من الغاية . ويبتغى طرفا من الهدف فيكون العمل أكمل ، والمعرفة أمكن

كما أن هذه الفكرة سترسخ الشعور بالشخصية فى نفس أصحاب الاقليم ، وتدفعهم إلى المشاهدة المتمعنة فى أنفسهم . والفحص المتعمق لذواتهم ، فيتناولون من درسها ما هم أقدر عليه وأبصر به ، ويخرجون بنتائج تزيد معرفة هذه الوحدة بنفسها ، ومعرفة الباحثين بحقيقتها وقوتها وطاقتها ، فتتكون بذلك مجموعة من المعرفة الأدبية لهذا التراث الفنى وغيره ، تفصيلية كاملة ، لا معرفة مجملة عامة ، لمجموع مؤلف من قوى عدة ، تستحق كل واحدة منها الدرس المتخصص ، الذى تتطلبه الحياة العلمية الجادة الطامحة ! ! . فاذا ما اكتملت هذه المعرفة بوحدات هذه الكثرة ، وحدة وحدة ، فقد تهيأ سبيل المعرفة المكتملة للمجموع المؤتلف منها ؛ وعاد التقسيم والتفصيل ، كما قلنا ، عاملا من عوامل الاتحاد المؤسس ، والتماسك القائم على دعائم .

* * *

وهنا نسمع الحريصين على التقوى بالوحدة العربية يخافون خطر التمزق إذا ما احترمنا هذا الواقع ، وقدرنا أثر البيئة ، يخافون أن يذهب كل قوم بعصبيتهم التاريخية ، فيذهبون معها باتجاههم الأدبى ، غير العربى فتنبت بذلك الأواصر التى تربط هذه الأقاليم ذات الصلة بالعروبة ، والتى تعمل — من أجل الحياة — على توثيق صلاتها ، وتقوية روابطها .

وهذا الذى يخشونه ويقولونه يحوجنا إلى الوقوف ثانية عنده هنا فى شىء من الأناة ، أكثر من الوقفة القصيرة التى أشرنا فيها قبل الآن إلى جملة الرأى عند حديثنا فى رد دعاوى أصحاب الوحدة التامة التى تنكر تميز إقليم عن آخر قد استعمل العربية ، واتصل بها — أنظر ص ٣٤ — ٣٧ —

نقف هنا لنقول لهم ، أما ما تخشونه من ذهاب كل إقليم مع عصبيته التاريخية ، فيذهب أهل مصر مع الفرعونية ودعاتها ، ويذهب أهل الشام مع الفينيقية ودعاتها ، وأهل العراق مع الأشورية مثلا ، وأهل المغرب مع البربرية ، وتلك أمنية المستعمر الغاصب ... فهذا ما نخشاه أشد من خشيتكم له ، ونؤثر أن نبرأ من كل دراسة لأدب ، أو فن ، أو علم إن كانت منتهية بنا يوماً ما ، بل لحظة ما ، إلى شىء من ذلك ، يمكن للمستعمر ويهيء للغاصب !!

نقف هنا ونحن نحدث عن معالم المنهج الصحيح لدراسة الأدب وتاريخه ، على توزيع إقليمى ، يقدر البيئة وأثرها . نقف لنقول لهم إن هذا التصحيح الذى أسلفناه للمنهج كاف وحده كل الكفاية لإفساد هذه الفكرة ودحضها وتسفيه الدعاة إليها ، فهذا الذى ندعو إليه ونؤيده من فكرة الأقليمية ، وأساس البيئة خليق بأن يلقم هؤلاء الفراعنة أو الفينيقية أو الأشورية أحجاراً ! . ألم تروا كيف وصفنا البيئة بأنها بوتقة الدهر ومختبر الزمن ، وأنه يجرى فيها مزج العناصر وتأليف الأجزاء ، وأننا من أجل هذا المشاهد . من فعل القدر ، لا يد لنا بأنكار البيئة الطبيعية المادية ، ولا بالتخلص من آثار البيئة

المعنوية ؛ فهل ترون الذين يصفون البيئة هذا الوصف ، يستطيعون أن يفهموا ، بل أن يقبلوا : كيف بقى عنصر فذ مستعص ، خارج عن الناموس ، لا ينفعل ، ولا يتأثر ، ولا يمازج العناصر التى أذابتها وإياه قوة الوجود فى بوتقة الدهر ؟ !

وهل ترونا حين ننكر عليكم أن تكون العربية يوم طرأت على إقليم من الأقاليم كمصر ، قد خلصت من التأثر بما لقيته فى هذا الإقليم مما قرره الزمن ، ورسبته السنون ، وركزته الأجيال — هل ترونا حين ننكر عليكم ذلك انكارا علميا ونذودكم عنه . بل نذود عنه أنفسنا نحن ، وما ينازعها إليه من وراثة وثقافة ، وميول قريبة قوية ؛ نعود فنسلم لأصحاب الفرعونية ، أن هذه الفرعونية قد قامت فى مختبر الزمن حجر عثرة ، بل معدن عثرة عصى على قوى الحياة فلم ينفعل بشىء ، مما طرأ عليه قبل العربية ، ولا تأثر بشىء مما جاءته هذه العربية به من مزاجها ودمها ودينها و .. و ... الخ ! !

أحسب أن تصحيحنا للنهج على هذا الوجه كاف أوفى الكفاية ، لأن يدفع فى صدور أصحاب الفرعونية ، ويردعهم ردعا علمياً نزيهاً ، لا يتحدث عن الهوى ، ولا يشير إلى التعصب ، ولا يندد بالشهوات والرغبات والمنافع ، بل ينطق فى ذلك بلسان العالم المجرب .

دون غيره ؟ فأنا نذكرهم بأن وجود غيره مبطل لدعوى توحده ، يا أصحاب العروبة المتحكمة ، ويا أصحاب الفرعونية المزعومة . ثم يا أصحاب أمثال هذه النزعات فى الأقاليم المختلفة ، إنما ندعو إلى الوحدة البيئية ، والشخصية الإقليمية التى مزجت عناصرها كف

الرحمن ، وألفت أجزاءها سنن الكون ، فكانت كائنا موحداً مهما تتعدد عناصره ، وتتنوع أجزاؤه ، قد حفظت له البيئة وطبيعة الإقليم ووحدة التاريخ شخصيته الواضحة ، وكيانه الثابت ، فحق على الذين يفهمونه ويدرسونه أن ينظروا إليه فى هذا الكيان وتلك الشخصية ، من أجل ذلك قلنا إننا إنما نتحدث عن الأدب المصرى ، وندرس الشخصية المصرية ، والمزاج المصرى ، وهى الشخصية الواضحة ، والمزاج المتميز ، مع ما يطرأ عليه من عوامل المخالطة والمصاهرة والمفاجأة ، والمداخلة . فيتمثل ذلك ويتغذى به ، كما يتمثل الحى ويتغذى بما يدخل جسمه من ألوان الغذاء ، وعناصر النماء . ليحفظ بها شخصه ووجوده . وان تأثر بشىء من ذلك ، فهو التأثر الذى يستطيع الفاحص تبينه ووصفه وتدوينه ، فى حياة كل أمة ، وشخصية كل جماعة عرف لها طابع ، وادعيت لها شخصيته وكيانه .

إذن نحن إنما نتحدث عن مصر والمصرية ، بما ائتلف من هذه المصرية فى فعل الزمن بعناصر تداخلت ، ودماء تمازجت ، وقوى تواصلت فرعونية كانت وغير فرعونية ، من شرقية عربيـــة ، أو سامية ، وغربية يونانية ، أو رومانيـة . ولسنا دعاة عنصر من هذه العناصر وحده دون غيره ، ولا المتعصبون لاون من هذه الألوان وحده دون غيره ؟ فأنا نذكرهم بأن وجود غيره مبطل لدعوى توحده ، ومشاركته غيره مفسدة للتمسك بتفرده ، وأصحاب الفرعونيـة فى إنكار ما بعدها مبطلون ، كإبطال أصحاب العروبة فى إنكار ما قبلها سواء بسواء ، ولا فضل لواحد منهم على صاحبه فى حساب المنهج المحدد

وأسلوب الدرس المنصف . كلهم غير صائب .

* * *

واذن فالأصـــل الذى بنيت عليه فكرة الإقليمية يبطل بذاته وجوهره دعوة الفرعونية ، ومثلها من الاشورية والفينيقية والبربرية ويبقى بعد ذلك اننا حين ندرس هذا العصر الأخير والدور الماثل فى حياة أمة من هذه الأمم التى اتصلت بالعروبة فتركت لها العروبة لغة وفناً نقلت اليها ديناً وتقاليد ، لن نستطيع إنكار هذه الصلة الشاهدة القائمة التى نجمع مواد درسها ونقف جهدنا عليها . . . وقبل الآن قلت إن الذى ينكر مصرية مصر تكذبه أهرامها وما اليها من سواطع ماضيها ، والذى ينكر عروبة مصر يكذبه لسانها ، وتنادى على خطئه مآذنها . . مصر إذن ليست إلا هذا كله ، قد ألفت منه بيئتها وشخصيتها وذاتيتها .

— ٣ —

فاذا التزمتم بيئتكم : فما حول الأدب — ثم الأدب — ثم تاريخ الأدب

وإذا أدرك كل قبيل أنهم من بيئتهم منذ أول الدهر ، وقد ربطهم القدر بها ، وكتب تاريخهم فيها ، حتى ما تفهم صلتهم ببعيد عنهم ، أو قريب لهم ، فى خارجها إلا على هدى من تاريخها ، ونور من ماضيها ؛ فلا بد إذن من أن يرتبط كل درس لحياتهم . فى جوانبها المختلفة ، بهذه البيئة ، التى توجه بواقعها الطبيعى المادى حياتهم ، وتلون بهذا الواقع المادى كل نشاط معنوى لهم فيها ؛

وعلى أساس ما بينا من منهج مصحح ، تدرس الحياة الأدبية فى كل بيئة من البيئات المتميزة المنحازة ، من حيث هى جانب من حياة العربية بعد الأسلام ، إن يتفق مع سائر الجوانب والنواحى ، فأنه لا بد أن تمتاز ويختص بشىء له فى اللغة وأدبها وفنها ، مادمنا إنما أقمنا تقسيم البيئات — كما كررنا ذلك مراراً — على أساس من الفواصل المادية والفوارق الفطرية .

وتتوزع هذا الدرس وحدات جيش المعرفة فى البيئة ، فاذا ما ذهب أهل الأدب والتاريخ الأدبى ، ليدرسوا تلك الحياة الأدبية ، على الأسلوب الدقيق ، الذى وصفناه قبل الآن — فيما ناقشناه من أمر المنهج الأدبى ونظمه قديماً وحديثاً — وجب أن نبدأ هذه الدراسة بالنظر فيما سميناه « ما حول الأدب » أو « ما لا بد منه لفهم الفن الأدبى » . .

واذ ذاك يجب أن تقوم بهذا الدرس الوحدة المختصه به ، وأن يلتمسه

أصحاب الأدب عند أهله كاملا دقيقاً ، مفصلا عميقاً . ففيما حول الأدب يجب أن نعرف الشعب الذى سكن تلك البيئة عن طريق دراسة جنسية شعبية مفصلة . وندرس البيئة المادية دراسة إقليمية مفصلة كذلك . على أن نطلب ذلك كله عند أصحابه ، والمتفرغين له ، من المتصدين للدراسة الجغرافية وما إليها لا أن نقوم به ، على صورة ناقصة وتناول قاصر ، لأن أصحابه الأولين قد شغلوا عنه بغيره من دراسة أوروبا وأمريكا ، فى انصراف عن الواجب القومى ، الذى ينبغى أن يحكم فى البرامج والدراسات ، لتكون كلية الآداب فى مصر ، مصرية لمصر قبل كل شىء آخر ، بل دون شىء آخر ، لو أمكن ذلك .

وفيما حول الأدب يجب أن نعرف البيئة المعنوية ، فى مظاهرها المختلفة التى بيناها فى الخطوة الثانية من معالم المنهج ، فنعرف أكثر ما يمكن أن يعرف ، عن الحياة العلمية فى فروعها المختلفة . . . فالحياة الفنية فى ألوان الفنون المتعددة . . . والحياة الاجتماعية بأوسع ما نشمله من نشاط المجتمع ، فردياً ، أو أسرياً ، وجماعياً ، اقتصادياً ، أو سياسياً وعملياً . . الخ على أن نطلب ذلك كله كذلك عند المختصين به والمتفرغين له ، من أصحاب الدراسة التاريخية وما إليها . . . لا أن نقوم به نحن بصورة ناقصة ، وتناول قاصر ، كالذى وصفناه فى الدراسة الجغرافية لأن أصحابه الأولين ، قد شغلوا عنه بغيره من دراسة ، أو قد تناولوا منه جوانب . وأهملوا جوانب . فاذا ما تيسر لطلبة الأدب أن يقصدوا الى قسم الجغرافيا وإلى قسم التاريخ وإلى غيرها من الأقسام ، أو أن يتفضل عليهم أساتذة هذه الأقسام بما فيه وفاء حاجتهم من هذه المواد التى لا بد منها ليستطيعوا

التقدم إلى فهم النصوص الأدبية التى هى — كما قلنا — لون من الفنون لا تفهم إلا بعد فهم ما سواها ، إذا ما تيسر ذلك كانت الكلمة للواجب القومى ، وكانت المنفعة العلمية الموجودة قريبة التحقق .

وبعد الإلمام بهذا ، يتقدم أصحاب الأدب لفهم النصوص الأدبية بعد جمعها المستوعب الشامل ، على أن يتأثلوا ما لابد منه لهذا الفهم من خبرة بالنفس الانسانية ، يلتمسونها كذلك عند أهل هذه الدراسة المختصين بها ، وهنا نشعر أنه لابد أن يدرس قسم الفلسفة دراسة نفسية وافية ، يكون من بين فروعها علم النفس الأدبى . الذى وصفنا ما نحتاج إليه منه ، فى الحديث عن البلاغة وعلم النفس أو الأدب وعلم النفس ، والتفسير وعلم النفس ، فاذا ما ظفروا بذلك كله على وجه مرضى من مقاومة وحدات الجيش العلمى كان العنصر نصيب هذا الجيش المتماسك الموحد ، الذى يصوب إلى هدف واحد ، هو رفع مستوى حياة وطنه ، وإقليمه الذى هو أعرف الناس به ، وأقدر الناس على فهمه ، وأعظمهم واجباً أمامه ، وأوفاهم بحقه عليه . .

ومن فهم الأدب بهذه الوسائل كلها استطاع بلا مراء أن يؤرخ الأدب هذا التأريخ المرجو ، الذى حدثنا عنه من قبل ، فوصف سير الحياة الأدبية ، وأثر النواميس الكونية فيها وصفاً دقيقاً صحيحاً جديراً بأن يسمى تاريخ الأدب ، ويقسم أقساماً وأدواراً على أساس مفهوم سليم ، لا يؤخذ عليه شىء مما أخذناه على التقسيم الزمنى السياسى الذى لا وجه له ، ولا دلالة فيه ، إلا على أيسر العوامل تأثيراً فى حياة الأدب والأدباء .

* * *

ولا يحسبن أبناء الشرق الذين هم أحوج الناس اليوم ، إلى التواصل والتعاون ، أننا بهذا التوزيع العلمى ، الذى تلزمهم فيه بيئتهم ، نقطع عليهم طريق هذا التواصل والتعاون ، فى درس البيئات . . . كلا . . . فقد بينا لهم فى الخطوتين السابقتين ، من معالم هذا المنهج ، أن منهما ما لا يقوم إلا على التعاون ، كدراسة الجزيرة العربية ، ومنهما ما يتحقق به التعاون المثمر ، بين وحدات قوية الشخصية ، واضحة الشعور بنفسها . . ، وقد تكرر هذ المعنى ، وبين فى الخطوة الثانية ، بما أصبح القول بعده ملتحقاً باللغو العابث

ولكننا رغم ذلك نعود لنبين أن هذه الدراسة الخاصة للبيئة ، على النظام السابق للمنهج ، تحوج أهل كل بيئة ، إلى التعاون مع من حولهم ، وتكشف لهم هذه الحاجة عن روابط وصلات ، قد توثقت فيما مضى ، بين بيئاتهم وأسلافهم فيها .

فبدراسة ماحول الأدب فى ماضى البيئة ، سنعرف بما كان من هذه الروابط الجنسية والعملية ، بين هاتيك الأقطار ، كما أن دراسة ظواهر الحياة المعنوية ستكشف أيضاً عما كان فى هذه المعنويات من تأثير وتأثر وتبادل وتفاعل . . فاذا ما كان العصر الاسلامى وقصدوا إلى درسه ، فقد قلنا إن هذا العصر يصل بينهم بروابط متشابهة ، تتكامل معرفتها بالدراسة الخاصة فى كل بيئة ؛ فالعقائد وما اليها من الدينيات ؛ والشرائع وما اليها من المذاهب ، وكتاب الدين وما يتصل به من علوم ، والسنة وما حولها من معارف ؛ كل أولئك وما اليهم روابط تشابه تصل بينهم ، وتحملهم على تبادل النتائج فى درسها ، ومثل هذا

مما ينبغى أن يتم بينهم التعاون عليه ، بعقد المؤتمرات ، والانتفاع بما يصل اليه أصحاب كل بيئة من الحقائق والمعلومات ، حتى أن هذه الدراسة لاتكتمل على وجهها الصحيح إلا إذا وزعت هذا التوزيع واتصلت هذا الاتصال . ألم تر أن المذهب المالكى مثلا ، قد كان فى الحجاز ، ومصر ، والعرق ، والأندلس ، فلو درسه شخص ، هذه كلها لما استوفى ولا أوفى ؛ ولو درس كل قبيل بيئتهم حق الدرس لعرفوها فى المذهب وعرفوا المذهب فيها ، واستعان كل قوم بمعرفة إخوانهم على استكمال معرفتهم ، فعرفت بعد ذلك حياة هذا المذهب معرفة صحيحة مفصلة كاملة .. وقس على هذا المثال الفقهى غيره من المثالات الاعتقادية والنحل ، والعلوم القرآنية فى تاريخ القرآن وموضوعاته ، والسنة فى روايتها ودرايتها .. وهكذا يكون هذا التقسيم كما أسلفنا توزيعاً مصلحاً للدرس ، معيناً على النفاذ العميق فيه ، كما يكون فى الوقت نفسه منظما للتعاون ، مسدداً طريقه ، مبيناً النواحى المحتاج اليها منه ، لادعوة مبهمة وعملا مشتركا غير منسق ، ومكرراً غير متخصص

والأمر فيما حول الأدب وفى الأدب وتاريخه على هذا المثال تماما وقد سبقت الاشارة اليه ، وبات القول بعد ذلك بأن الاقليمية تقطع أواصر الارتباط بين هذه الأمم ، أو توهن صلاتها اللغوية ، والدينية والأدبية المشتركة كما باطل الأساس ، وقولا بالهوى لاحجة عليه ولا شبه حجة له ... بل اتضح من الاقليمية أنها تؤدى الى عكس ذلك تماما ، على حين تصحح الفكرة الأدبيه ، كما تصح المنهج الأدبى ...

ولو شئت بعد التفصيل أن أضع بين يدى القارىء خلاصة ذلك كله حتى لا يضطرب عليه الرأى ، ولا يشق عليه الحكم أو النقد .

قلت آنفاً

١ — إن البحث **فكرة ومنهج** : وقلت عن الفكرة : أنها نصفان : قومى مصرى خاص ؛ وفنى أدبى عام ؛ فالمصرى الخاص هو توجيه العناية الكاملة الى دراسة مصر أدبياً فيما يخصنا ، ويخص كلية الآداب المختلفة ، وفنياً فى سائر المعاهد الفنية المصرية ، والدراسة الفنية الأخرى تكمل درسنا الأدبى ، ويكملها درسنا الأدبى ، كما توجه العناية الاولى الى دراسة مصر علمياً ؛ واجتماعياً وعملياً .. الخ والأدبى العام بعد الفكرة هو درس الأدب وتاريخه ، فى أقاليمه وبيئاته ، لا فى أزمانه وعصوره . . ثم فى بيان الجزء الاول من الفكرة ، وهو المصرية الخاصة قلت :

٢ — إن حياً ان يكفر فى نفسه وهو حى ، لان إيمان الحى بنفسه سر وجوده الفطرى . ومصر لم تكفر بنفسها لحظة ما فكيف لا تؤمن بشخصيتها فى الفنون بعامة ، ثم فى الأدب بخاصة ، وفى هذا العصر الاسلامى الذى ظلت فيه كدأبها شاعرة بنفسها ، يقظة لذاتها ، فهى لهذا تصر على أن تدرس وجودها الادبى فى العصر الاسلامى .

كما أن هناك اعتبارات عملية ، وعلمية ، وفنية توجب على مصر وأبنائها أن يدرسوا أنفسهم أول مايدرسون وأكثر مايدرسون ؛ وأشرت فى إجمال الى تلك الاعتبارات العملية ونحوها ، ثم فصلت الاعتبارات الفنية أو فى التفصيل لأنها تقوم على الشق الثانى من الفكرة وهو مكانية الأدب ، وبيئته ، لا زمانيته . وسياسته فقط ، وهنا وصل القول إلى القسم العام من الفكرة فقلت :

٣ — إن تحديد عصور أدبية زمنية ، كصدر الاسلام ، والأموى والعباسى الأول والثانى . . . الخ . ما هو معروف فى تاريخ الأدب دون تحديد المكان ، بل دون النظر إلى المكان الذى يشغله هذا الأدب كالشرق القاصى ، أو العراق ، أو مصر ، أو المغرب . . . الخ ، إنما هو إخلال عجيب ، بالتحديد والضبط . . . وإهمال للمؤثرات الطبيعية المادية القاهرة . مع الاهتمام بما لا أثر له . أو له أيسر الأثر ، وهو الحكم السياسى وزمنه . . .

وإن أثر البيئة الطبيعية على ما يعيش فيها من كائن مادى أو معنوى أثر قوى ، واضح يقره البحث العلمى ويحاول ضبطه ، والأدب من بين هذه الكائنات المعنوية . . بل هو من حيث وجدانية الفن ، من أشد الأشياء تأثراً بالبيئة والإقليم ، فوجب أن يقدر أثر البيئة فى فهم الأدب والأدباء ، ثم فى تاريخ الأدب والأدباء ، وعلى هدى هذا التأثر ، تقسم حياة الأدب وتحدد عصوره ، ومعنى هذا أن القول بالاقليمية إنما هو قضية العلم فى تاريخ الادب .

٥ — إن تقسم الاوطان التى سكنتها العربية بعد حركة الفتح الاسلامى الى بيئات ومناطق ، يحتكم العلم فى تحديدها وتمييزها ، وتعين الفواصل المادية بينها ، ولا ألزم فى هذا التقسيم برأى معين

لكنى إنما أقول : إن مصر بوصفها الطبيعى الفطرى ، قد تميز كيانها الاجتماعى ، واستقر ماضيها التاريخى فتوافرت لها مقومات البيئة المتفردة الواضحة ، فدرس أدبها عمل علمى صحيح الأصول .

٦ — إن أقليمة الأدب يجادل عن نفسها ، وتثبت صحتها ؛

واتبعت فى ذلك مايشبه برصاصة الخلف المنطقى الهندسى فعرضت مايبطل به المدعون هذه الإقليمية وناقشتهم فيه ، وألمحت من ذلك النواحى الأدبية الآتية :

ا — تحديد زمن لنشأة الآداب الإقليمية فى المملكة الاسلامية وأبطل هذا بمنافاته لأدلة أصول الاقليمية ، من عدم تحديد زمن واحد لظاهرة بدت فى أقاليم مختلفة ، فوجب أن تختلف باختلاف الأقاليم

ب — تشابك العالم الاسلامى فى العصر الذى حدد نشأة الآداب الإقليمية ، واتحاد الشريعة ، والعرف والعادات فى ذلك الوطن ؛ وعدم تميز وطن عن وطن فى العلم أو الشعر . . وقد أبطلت ذلك بالشواهد الكافية .

ح — تقرب الاوطان التى نزلتها العربية بعد الفتح الاسلامى ونسيان ماضيها تماما ؛ حتى أن محاولة نعتها إلى الجمهورية وأثرها لعمل ضائع .

وقد بينت مافى هذه الفكرة من وهم ؛ ورددتها بالنواميس الكونية الاجتماعية ؛ التى لا تزال تتجدد فى الأمم الحديثة والتاريخ المشهود وانجر الحديث إلى أشياء عن الوحدات عربية وشرقية ، وما فى فكرتها من هوى أو تحامل .

واتصل الأمر إلى الحديث عن أثر الاسلام فى حياة الأقاليم التى اتصل بها ومدى ماأحدثه فيها من تحول .

د — وحدة الثروة الأدبية العربية وحدة تامة . . وقد بينت مافى شواهد هذه الدعوى من دخل ثم أبطلتها بالشواهد الأدبية الوافية

وعرضت فى ذلك لبيان ماتبغى هذه الوحدة من أصول فنية أدبية . . وبينت ماتميز به أدب عن أدب . وأوضحت كيف تكون الاقليمية منهجاً صحيحاً مع الطموح إلى دعوة أدبية إنسانية عامة ، ومشاركة الأمة فى الحياة الأدبية العالمية ، مع وضوح مشخصاتها الأدبية المميزة لها .

هـ — على ظهور أدب مصرى خاص . . وقد بينت خطأ التفكير فى هذه المسألة ؛ وجور أصحابها على المنهج الصحيح ، وحددت مايراد من الأدب المصرى حين نذكره . .

وهنا انتهى القول فى الفكرة الأدبية العامة ، من حيث مايبطلها خصومها من مناقضات : . وحسن أن نعرض للفكرة الخاصة ، وهى المصرية وأدبها ؛ فعرضت لما تتفاوت فيه كلمة القائلين بها ، وذكرت من ذلك :

ا — حدود البيئة المصرية ؛ أهى الحدود الجغرافية ؛ أم الحدود المعنوية ، من ثقافية ، وسياسية ونحوها — فبينت الصواب فى ذلك وإلى هنا انتهى القول فى الفكرة

فقلت فى المنهج

١ — كيف فهم القدماء الأدب وتاريخ الأدب ، وكيف درسوهما وكيف فهمنا نحن ذلك فى الحديث وخطأنا فى هذا الفهم ؟

٢ — وبينت الأدب ، وتاريخ الأدب . وحد مابينهما من صلة ، وقسمت الدرس إلى ماحول الأدب ، ثم الأدب — ثم تاريخ الأدب

٣ — بينت خطوات المنهج الدراسى الصحيح للأدب وتاريخه وما يتطلبه من أعمال لم نقم بها بعد .

٤ — تحدثت عن منهج الأدب المصرى بخاصة ، وأثر الاقليمية فى المنهج ، ووصفت الخطة التى التزمتها فى هذا البحث بمناسبة الدعوة الى اعتناق الفكرة والتزام المنهج .

٥ — وصفت المعالم الكبرى للمنهج المطلوب ، على أنه منهج يمكن أن تصطنعه الأقطار التى حلتها العربية جميعا ، وتلك المعالم هى :

ا — درس العربية فى جزيرتها ، على شركة للأمم التى عرفت العربية جميعا

ب — التزام البيئة

ح — التزام الخطوات المرئية فى فى درس البيئة وهى ماحول الأدب — ثم الأدب — ثم التاريخ

تلك هى الفكرة ، وذلك هو المنهج أجملت القول فيهما وركزته لئلا يضل ناقد أو يخطى متفهم وإنى لآمل أن يكون فى هذه الفكرة وذياك المنهج تسديداً وإمداداً للنهضة الأدبية فى أقطار الشرق ، وهى طليعة النهضات جميعاً ، ومثيرة العزائم لجلائل الآمال والأعمال

وهذا هو البحث الذى عنونته الى الأدب المصرى ، دعوة الى الوفاء للنفس ، والمنهج الصحيح هتافها : قدروا البيئة ، ادرسوا مصر .

COLUMBIA UNIVERSITY LIBRARIES

This book is due on the date indicated below, or at the expiration of a definite period after the date of borrowing, as provided by the library rules or by special arrangement with the Librarian in charge.

DATE BORROWED	DATE DUE	DATE BORROWED	DATE DUE
C28 (946) M100			

893.7195 K529

Ø533813 1

JUN 30 1947

COLUMBIA LIBRARIES OFFSITE
CU58877479
893.7195 K529 Fi al-adab al-Misri